المحاضرة التمهيدية

اهداف المقرر

أن يتعرف الطالب على نشأة دولتي المماليك والأيوبيين ، ودور الأيوبيين في توحيد المسلمين ومواجهة الصليبيين واستعادة بيت المقدس .

ودور المماليك في مواجهة المغول وردهم ومواصلة الجهاد ضد الصليبيين .

محتوى المقرر

- **أولا تاريخ الأيوبيين :**
- **- أصل الأيوبيين – نورا لدين محمود وضم مصر إلى الشام – صلاح الدين وزوال الدولة الفاطمية وتوحيد الجبهة الإسلامية – توحيد القدس – العادل وتوحيد البيت الايوبى لمواجهة الحملتين الصليبيتين الرابعة والخامسة – الملك الكامل والحملة الخامسة – الصالح نجم الدين والحملة السابعة .**

تابع محتوى المقرر

ثانيا دولة المماليك :

وتنقسم إلى قسمين هما :

المماليك البحرية : سيف الدين قطز يواجه المغول –الظاهر بيبرس وتأسيس المماليك البحرية وجهاده ضد الصليبيين – أسرة قلاوون وجهادهم ضد الصليبيين .

المماليك البرجية (الجراكسة) : الفرق بينهم وبين المماليك البحرية – دراسة سلاطين المماليك البرجية كلا على حدي (برقوق – فرج – برسباى – جقمق – قايتباي – قلنصوة الغوري – طومان باى ودور كلا منهم حتى سقوط الدولة على يد العثمانيين.

المراجع والمصادر التعليمية

- - سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك .
- - المقريزي ، السلوك في معرفة دول الملوك .

- ـ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الأيوبيين والمماليك .
- ـ احمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك في مصر والشام

المحاضرة الأولى

اصل الايوبيين وبدايتهم

أصل الأيوبيين (هام مناقشة ١)

- **شكَّلت الدولة الأيوبية مرحلة مهمة في التاريخ الإسلامي، واضطلعت بمهام عظيمة وجسيمة في حياة الأمة؛ وكان أمراؤها على قدر المسئولية حينًا، وعلى غير ذلك أحيانًا أخرى.**

- **واختلف المؤرخون في تحديد أصل الأيوبيين فقيل أنهم كرد من الأكراد من أذربيجان وقيل أنهم عرب. وقيل أنهم أكراد مستعربون حيث انه من الثابت أن لغتهم كانت العربية وذكر الحسن بن داود الأيوبي في كتابه "الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية" ما قيل عن نسب أجداده وقطع أنهم ليسوا أكرادًا، بل نزلوا عندهم فنسبوا إليهم. وقال: "ولم أرَ أحداً ممن أدركتُه من مشايخ بيتنا يعترف بهذا النسب ".**

كما أن الحسن بن داوود قد رجّح في كتابه صحة شجرة النسب التي وضعها الحسن بن غريب ، والتي فيها نسبة العائلة إلى أيوب بن شاذي بن مروان بن أبي علي (محمد) بن عنترة بن الحسن بن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز بن هُدْبة بن الحُصَين بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مُرّة بن عُوف بن أسامة بن بَيْهس بن الحارث بن عوف بن أبي حارثة بن مُرّة بن نَشبَة بن غَيظ بن مرة بن عوف بن لؤي بن غالب بن فِهر (وهو جد قريش).

كانت أسرة نجم الدين أيوب ، بمن فيهم أخوه أسد الدين شيركوه وابنه يوسف (صلاح الدين) قادة عسكريين في خدمة الزنكيين.
في ١١٣٢م كان نجم الدين أيوب في خدمة عماد الدين زنكي في حربه ضد السلطان السلجوقي قرب تكريت ، فعينه حاكما على بعلبك إلا أنه سلمها إلى حاكم دمشق ، معين الدين أنور.

بعد موت عماد الدين زنكى دخل شيركوه في خدمة ابنه نورالدين زنكي ملك حلب مشاركا في قيادة الجيش في الحملات العسكرية في الشام وحملاته في مصر في مواجهة الفاطميين.

كان نور الدين محمود يتطلع إلى دمشق، فحينما حاصرها الصليبيون في الحملة الثانية عام ١١٤٨ دخل معين الدين (و البوريون) على مضض في حلف مع نور الدين، الذي طالب لاحقا بالمدينة، وولى عليها نجم الدين أيوب فبقي عليها حتى نهاية حكم نور الدين زنكى، ويقال أنه أكرمه حتى كان واليه الوحيد الذي سمح له بالجلوس في حضوره.

. لقد شكلت أحداث التاريخ الزنكي دولة إسلامية في مرحلة من أشد مراحل التاريخ الإسلامي حرجًا ,إذ تعرض فيها العالم الإسلامي في الشرق الأدنى لهجوم أوروبي غربي عُرفَ باسم الحروب الصليبية ، في الوقت الذي كان فيه المسلمون يمرون بحالٍ من التفكك ، وأصبح من الواضح أنهم كانوا في أمَسِّ الحاجة إلى رجل قوي ينقذهم من حال الفرقة والانقسام ,ويوحدهم تحت رايته ، ويجمع طاقاتهم قبل أن ينطلق بهم في خُطًا ثابتة نحو الجهاد.

وقد اتصفت الحياة السياسية في الشرق الإسلامي قبل مجيء الصليبيين باضطراب داخلي، شمل كافة الدول والإمارات الإسلامية؛ ففي الشرق خضعت الخلافة العباسية لسيطرة السلاجقة الذين تدهور نفوذهم بعد ذلك وتفككت دولتهم ,ودَبَّ النزاع بين أمرائهم حول الاستئثار بالنفوذ والسلطان.
وكانت الدولة الفاطمية في مصر تمر بمراحل شيخوختها؛ فينازع أمراؤُها خلفاءَها، وتجاذبت القوتان السلجوقية والفاطمية بلاد الشام دون أن تتمكن أي منها من تثبيت نفوذها، وسيطرتها عليها بصورة دائمة أو فعالة .

نتج عن هذا الوضع المضطرب مناخ مناسب للأمراء المحليين في إقليم الجزيرة وبلاد الشام، فاستقل كُلٌّ بما تحت يده يعالج مشكلاته وشئونه الخاصة، وخضع للجانب الذي ارتبطت به مصلحته ، وراح يعمل على توسيع أملاكه - إلى ما وراء حدود إمارته - على حساب جيرانه الأمراء الآخرين في ظل ضعف الرابطة السياسية بين هذه الكيانات؛ فتوزعت السلطة نتيجة ذلك بين عدد من الأمراء الطامحين، وتركزت إماراتهم في الموصل ، وأنطاكية ، والرُّها، وحلب ودمشق ، وبيت المقدس وغيرها ، فأصبح لكل واحدة من هذه الوحدات السياسية – الاجتماعية، كيانها الخاص وذاتيتها المتميزة إلى حد كبير..

وقد وصل الصليبيون في ظل هذه الظروف القلقة إلى العالم الإسلامي، واندلعت نيران الحروب الصليبية في الجزيرة وبلاد الشام، ونجحوا في تأسيس أربع إمارات لاتينية في

قلب العالم الإسلامي هي : الرُّها، وأنطاكية ، وبيت المقدس ، وطرابلس ، مستغلين تدهور نفوذ السلاجقة، وعجز الخلافة العباسية، والدولة الفاطمية، وتَشَتُّت الإمارات الإسلامية .

أدرك عماد الدين زنكي ما آلت إليه أوضاع العالم الإسلامي في الشرق من تشتت وتدهور، فأخذ على عاتقه القيام بهذه المهمة، فأسس دولة له في الموصل وحلب، ثم رفع راية الجهاد ضد الصليبيين لكنه اصطدم بحالة التمزق السياسي التي كانت سائدة في المنطقة؛ فرأى ضرورة تجميع القوى الإسلامية، وحشد طاقاتها قبل القيام بأية خطوة إيجابية لمواجهة العدوان الصليبي، فأخذ يعمل على ضم هذه القوى المشتتة .

وبعد أن خطا خطوات واسعة في هذا السبيل ونجح في ضم شمال بلاد الشام إلى إمارة الموصل ونهض ليتصدى للصليبيين، ونجح في تحقيق أهم إنجازاته التي بدأ بها صفحة جديدة في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين في المنطقة، وهي استعادته إمارة الرها من أيدي الصليبيين. وكان لهذا النصر أهميته حيث أثبت قدرة المسلمين على مجابهة الخطر الصليبي، بالإضافة إلى أنه أمَّنَ حرية الاتصال بين الموصل وحلب .

بعد وفاة عماد الدين زنكي خضعت الرها إلى حكم سيف الدين غازي، وبقيت في المدينة حامية صغيرة للدفاع عنها. فحاول جوسلين الثانى أمير الرها استعادة المدينة مستغلا تمردًا للأرمن قام بالتحريض عليه بعد وفاة عماد الدين. فخرج على رأس قوة عسكرية متجهًا إلى الرها وسانده في ذلك بلدوين حاكم مرعش في حين رفض ريموند الثانى حاكم أنطاكية مساعدته .

استطاع جوسلين الثاني الدخول إلى البلدة في ٥٤١ ربيع الأخر الموافق شهر سبتمبر من سنة١١٤٦ ، لكنه لم يستطع دخول القلعة التي احتمت فيها الحامية بسبب قلة عدد قواته وأرسل طالبًا المساعدة من إمارتي أنطاكية وطرابلس. أرسلت الحامية طلبًا بالمساعدة. فخرج جيشان، جيش من حلب وجيش من الموصل بأمر سيف الدين غازى، لكن الأخير وصل متأخرا.

فخرج نور الدين محمود من حلب على رأس جيش تعداده عشرات الآلاف من الفرسان وحاصر قوات جوسلين الثاني في شهر نوفمبر من نفس العام مما أضطر جوسلين إلى الهرب. فطارده نور الدين ووقعت معركة في سميساط ونجح جوسلين الثاني في الفرار بعد انتصار نور الدين. وعاقب نور الدين أهالي الرها المتمردين وطرد من بقي فيها من الفرنج،

وقد أقر سيف الدين غازي بحكم نور الدين محمود على الرها بعد أن سيطر عليها. وبدأ نور الدين محمود في الظهور كقائد قوى في المنطقة.

نور الدين محمود

ولا تذكر المصادر التاريخية شيئاً عن نشأة نور الدين وشبابه، ولكنها جميعاً تؤكد أنه تربى في طفولته تحت رعاية وإشراف والده عماد الدين، ولما جاوز الصبا لزم والده حتى مقتله ٥٤١هـ/١٠٤٧م وكانت حياة عماد الدين في فترة حكمه من ٥٢١هـ ـ ٥٤١ هـ مدرسة عليا شاملة لجميع أنواع المعارف الإنسانية في مجالات العلوم السياسية والإدارية والعسكرية، بالإضافة إلى العلوم الشرعية الدينية.

تزوج نور الدين عام ٥٤١هـ من عصمت الدين خاتون ابنة الأتابك معين الدين حاكم دمشق، ، وأنجب نور الدين من زوجته هذه ابنة واحدة، وولدين هما الصالح إسماعيل الذي تولى الحكم من بعده، وتوفي شاباً لم يبلغ العشرين من العمر، من جراء مرض ألمّ به عام ٥٧٧هـ وأحمد الذي ولد بحمص عام ٥٤٧هـ ثم توفي في دمشق طفلاً.

ثم برز نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي كشخصية فذة؛ بدأ من حيث انتهى والده، وبذل جهدًا مضنيًا في سبيل إثارة الأمة، وبَعْثِ رُوح الجهاد والتضحية بين جميع أفرادها في مناطق الشرق الإسلامي، وقد ورث القسم الغربي من الدولة الزنكية مع المشكلتين الكبيرتين اللتين واجهتهما ، والمتمثلتين في أتابكة دمشق الذين وقفوا حجر عثرة في وجه عماد الدين زنكي لتحقيق وحدة المسلمين في بلاد الشام، بالإضافة إلى الإمارات الصليبية المنتشرة في هذه البلاد .

وكان نور الدين دائم السعي إلى استمالة القوى الإسلامية المتعددة في شمال العراق والشام وكسب ودها وصداقتها؛ لتستطيع مواجهة العدو الصليبي، فعقد معاهدة مع معين الدين أنر حاكم دمشق سنة (٥٤١هـ = ١١٤٧م) وتزوج ابنته، فلما تعرض أنر لخطر الصليبيين وكانت تربطه بهم معاهدة وحلف لم يجد غير نور الدين يستجير به ، فخرج إليه ، وسارا معا واستوليا على بصري وصرخند قبل أن يقعا في يد الصليبيين، ثم غادر نور الدين دمشق؛ حتى يبعث في قلب حاكمها الأمان، وأنه لا يفكر إلا في القضاء على الصليبيين؛ فتوجه إلى حصون إمارة إنطاكية، واستولى على أرتاح وكفر لاثا .

وعلى أثر ذلك ملك الرعب قلوب الصليبيين من نور الدين، وأدركوا أنهم أمام رجل لا يقل كفاءة وقدرة عن أبيه عماد الدين، وكانوا قد ظنوا أنهم قد استراحوا بموته، لكن أملهم تبدد أمام حماسة ابنه وشجاعته، وكان عمر نور الدين محمود في ذلك الوقت لا يتجاوز تسعا وعشرين سنة، لكنه كان على درجة كبيرة من الحكمة والتدبير.

وفي سنة (٥٤٢هـ = ١١٤٧م) وصلت الحملة الصليبية الثانية على الشام بزعامة لويس السابع وكونراد الثالث، لكنها فشلت في تحقيق أهدافها وتعرضت لخسائر هائلة، وعجزت عن احتلال دمشق، ويرجع الفضل في ذلك لصبر المجاهدين واجتماع كلمة جيش المسلمين ووحدة صفهم، **وكان للقوات التي جاءت مع سيف الدين غازي وأخيه نور الدين أكبر الأثر في فشل تلك الحملة.**

واستغل نور الدين هذه النكبة التي حلّت بالصليبيين وضياع هيبتهم للهجوم على إنطاكية بعد أن ازداد نفوذه في الشام، فهاجم في سنة (٥٤٤هـ=١١٤٩م) الإقليم المحيط بقلعة حارم الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصي، ثم حاصر قلعة إنب، فنهض "ريموند دي بواتيه" صاحب إنطاكية لنجدتها ، والتقى الفريقان في (٢١ من صفر ٥٤٤هـ= آخر يونيو ١١٤٩م) ونجح المسلمون في تحقيق النصر وأبادوا الصليبيين عن آخرهم، وكان من جملة القتلى صاحب إنطاكية وغيره من قادة الفرنج وكان ذلك انتصارا كبيرا للمسلمين.

آمن نور الدين بضرورة وحدة الصف، وانتظام القوى الإسلامية المبعثرة بين الفرات والنيل حتى تقف كالبنيان المرصوص أمام أطماع الصليبيين، وكانت دمشق تقف حجرة عثرة في طريق تلك الوحدة، وكان معين الدين أنر صاحب السلطة الفعلية في دمشق يرتبط بعلاقات ودية مع الصليبيين ومعاهدات وتحالفات، وبعد وفاته قام "مجير الدين أبق" بحكم دمشق، وجرى على سياسة أنر في التعامل مع الصليبيين، بل أظهر ضعفا ومذلة في التعامل معهم، وأعرض عن وحدة الصف وجمع الكلمة ، وبلغ الهوان به أن وافق على أن يدفع أهل دمشق ضريبة سنوية للصليبيين مقابل حمايتهم، وصار رسل الفرنجة يدخلون دمشق لجمع الجزية المفروضة دون أن يستشعر حاكمها خجلا أو هوانا.

ولم يسكت نور الدين على هذا الوضع المهين، واستثمر شعور الغضب الذي أبداه الدمشقيون، ونجح بمساعدتهم في الإطاحة بمجيرالدين أبق وضم دمشق إلى دولته في سنة (٥٤٩هـ = ١١٥٤م) وكانت هذه الخطوة حاسمة في تاريخ الحروب الصليبية؛ حيث

توحدت بلاد الشام تحت زعامة نور الدين : من الرها شمالا حتى حوران جنوبا، واتزنت الجبهة الإسلامية مع الجبهة الصليبية التي كانت تستغل حالة التشتت والتشرذم، وتوجه ضرباتها إلى دولة الإسلام حتى إن نور الدين لم يستطع نجدة عسقلان عندما هاجمها الصليبيون سنة (٥٤٨هـ = ١١٥٣م) لأن دمشق كانت تقف حائلا دون تحقيق ذلك.

بعد نجاح نور الدين في تحقيق المرحلة الأولى من توحيد الجبهة الإسلامية لم يعد أمام الصليبيين للغزو والتوسع سوى طريق الجنوب بعد أن أحكم نور الدين سيطرته على شمالي العراق والشام؛ ولذا تطلع الصليبيون إلى مصر باعتبارها الميدان الجديد لتوسعهم، وشجعهم على ذلك أن الدولة الفاطمية في مصر تعاني ضعفا شديدا وبدت عليها ملامح الانهيار والسقوط فاستولوا على عسقلان، وكان ذلك إيذانا بمحاولتهم غزو مصر، مستغلين الفوضى في البلاد، وتحولت نياتهم إلى فعل حيث قام "بلدوين الثالث" ملك بيت المقدس بغزو مصر سنة (٥٥٨هـ = ١١٦٣م) متعللا بعدم التزام الفاطميين بدفع الجزية له، غير أن حملته فشلت وأجبر على الانسحاب. .....

المحاضرة الثانية

ضم مصر الى الشام وزوال الدولة الفاطمية

بعد نجاح نور الدين محمود في تحقيق المرحلة الأولى من توحيد الجبهة الإسلامية ببسط سيطرته على العراق والشام ، لم يعد أمام الصليبيين إلا مصر فكانت هي السبيل الوحيد لتوسعهم.وقد شجعهم على ذلك ما آلت إليه الدولة الفاطمية في مصر من ضعف. وبالفعل بداء الصليبيين خطتهم بالاستيلاء على عسقلان، ثم قام بلدوين ملك بيت المقدس بعدها مباشرة بغزو مصر في عام ٥٥٨هـ الموافق ١١٦٣م. وكانت حجته في هذا الهجوم هو عدم التزام الفاطميين بدفع الجزية .

وأثارت هذه الخطوة الجريئة مخاوف نور الدين محمود ، فأسرع بشن حملات على الصليبيين في الشام حتى يشغلهم عن الاستعداد لغزو مصر، ودخل في سباق مع الزمن للفوز بمصر، **فأرسل عدة حملات إليها تحت قيادة " أسد الدين شيركوه" وبصحبته ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، ابتدأت من سنة (٥٥٩هـ = ١١٦٤م) واستمرت نحو خمس سنوات حتى نجحت بعد سباق محموم مع الصليبيين في الظفر بمصر سنة (٥٦٤هـ = ١١٦٩م)** وتولى شيركوه الوزارة للخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، على أنه لم يلبث أن توفي بعد شهرين فخلفه في الوزارة صلاح الدين الأيوبي.

نجح صلاح الدين الأيوبي في إقامة الأمن واستتباب الأمور وتثبيت أقدامه في البلاد، وجاءت الفرصة المناسبة لإسقاط دولة الفاطميين؛ فقطع الدعاء للخليفة الفاطمي ودعا للخليفة العباسي في أول جمعة من سنة (٥٦٧هـ = سبتمبر ١١٧١م). (سقوط الدولة الفاطمية)

وكان لدخول مصر تحت حكم نور الدين محمود دوي هائل، لا في مملكة بيت المقدس وحدها بل في الغرب الأوروبي كله، وارتفعت الأصوات لبعث حملة جديدة تعيد للصليبيين في الشام هيبتهم وسلطانهم، وتوجه لمصر ضربات قوية، غير أن حملتهم على مصر لم تحقق أهدافها ليقظة صلاح الدين في مصر.

وبنجاح نور الدين في ضم مصر إلى جبهة الكفاح يكون قد حقق الحلقة الأخيرة من حلقات توحيد الجبهة الإسلامية تمهيدا للضربة القاضية.

وكانت جهود نجم الدين محمود الأساس القوى للتصدي للحملات الصليبية وكان لها أكبر الأثر في الحفاظ على الهوية الإسلامية وتوحيد جبهتها .

وإذا كان نور الدين امتاز بالبراعة السياسية والحربية، فإنه كان إلى جانب ذلك مصلحاً اجتماعياً كبيراً، وصاحب نهضة رائعة، تدين له الدولة بالكثير من الإصلاحات في جميع النواحي.

ولسنا على كل حال بمستطيعين أن نميز أي عمل من أعمال نور الدين الإصلاحية عن غيره من الأعمال، فكل عمل عمله نور الدين يستحق الإعجاب والتقدير.

فإذا اتجهنا إلى اهتمامه بمصالح رعيته، وجدناه يعمل على راحتهم وطمأنينتهم على معايشهم وتيسير سبل الحياة الطيبة لهم.

وجد نور الدين أن الخمور منتشرة في بلاده، والخمر أساس الفساد وأم الكبائر، فأصدر أمره بمنع دخولها في جميع أنحاء مملكته، وكان يحدّ شاربها الحدّ الشرعي، لا فرق إن كان شاربها غنياً أو فقيراً، كبيراً أو صغيراً، فالكل عنده سواء.

وكان يهدف إلى تصحيح العقيدة والأخلاق والسلوك والوصول إلى الإيمان الحقيقي ، بحيث لا يضلل المسلمين مضلل أو يفسد عقيدتهم مبتدع. فكان يضرب على يد كل مبتدع يعمل على إفساد عقائد الناس، وينفيه.

أما تخفيفه على الناس معايشهم، فإنه أسقط جميع المكوس والعشور من بلاده ولم يبقى سوى الخراج والجزية، على كثرة ما كان يجمع من هذه المكوس والعشور. ومنع عن رعاياه ظلم قواده وأمرائه.

ولما رأى نور الدين أن الشكوى قد كثرت من أتباع قائده أسد الدين شيركوه، أمر بإنشاء دار العدل لمحاكمة الظالمين، فلما علم أسد الدين بذلك، أمر أتباعه برد المظالم إلى أهلها وشدد عليهم في ذلك، خوفاً من أن يحمله نور الدين مسئولية ظلم أتباعه، فيطلبه إلى المحاكمة العلنية فتضيع هيبته وتضعف مكانته عند الناس.

وقد نفذ أتباع نور الدين محمود ما أمرهم به ، وردوا إلى الناس حقوقهم. ولما تم بناء دار العدل، كان نور الدين يجلس فيها يومين في الأسبوع للفصل في الخصومات بحضوره.

ومنع نور الدين تعدّي الجند والعسكر على أحد من الناس. فكانت أوامره لرجال جيشه صارمة.

وفاته:

وبينما كان نور الدين محمود يستعد للسير إلى مصر، فاجأته الحمى، واشتد به المرض حتى لقي الله في (١١ من شوال ٥٦٩هـ = ١٥ من مايو ١١٧٤م) وهو في التاسعة والخمسين من عمره، وكان لموته رجة عنيفة في العالم الإسلامي وأثر كبير على الأمة الإسلامية.

بعد سقوط مصر في يدي نور الدين أرسل الملك عموري رسله لإرسال حملة صليبية جديدة شارحا خطورة الأمر والتغير في ميزان القوى في المنطقة، فاستجاب البابا الكسندر الثالث وبعث رسائل إلى ملوك أوروبا، لكنها لم تجد أذنا صاغية. في حين نجح الرسول المرسل إلى القسطنطينية بسبب إدراك الإمبراطور عمانوئيل اختلال توازن القوى في المنطقة. فعرض تعاون الأسطول الإمبراطوري مع حملة عموري الأول. الذي وجد الفرصة مناسبة بسبب انشغال نور الدين في الشمال بالخلافات الناتجة عن موت فخر الدين قرة أرسلان أحد قواده وعصيان حاكم منيج إحدى إماراته ومرض أخوه قطب الدين زنكي . إضافة إلى وفاة أسد الدين شيركوه وتعيين صلاح الدين مكانا له والذي كان يراه الملك عموري بالشخص غير المحنك .

تأخرت الحملة ثلاث أشهر منذ انطلاقها في ١٣ شوال ٥٦٤هـ ١٠(يوليو ١١٦٩م) بسبب عدم حماسة الأمراء والبارونات الصليبيين للمعركة بعد المعارك الأخيرة، إلى جانب استعداد صلاح الدين بشكل جيد. فقد استطاع التخلص من حرس قصر العاضد واستبداله بحرس موالين له ليبدأ حصار دمياط في أول صفر من عام ٥٦٥ هـ/ ٢٥ أكتوبر ١١٦٩ م، ليرسل صلاح الدين قواته بقيادة شهاب الدين محمود وابن أخيه تقي الدين عمر، وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخافة ويقول: "إن تأخرت عن دمياط ملكها الإفرنج، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا عن طاعتي ، وساروا في أثري ، والفرنج أمامي ؛ فلا يبقى لنا باقية ".

ورد نور الدين على صلاح الدين بقوله: "إني لأستحي من الله تعالى أن أبتسم والمسلمون محاصرون بالفرنجة". فسار نورا لدين إلى الإمارات الصليبية في بلا الشام وقام بشن الغارات على حصون الصليبيين ليخفف الضغط عن مصر. وقامت حامية دمياط بدور

أساسي في الدفاع عن المدينة وألقت سلسلة ضخمة عبر النهر، منعت وصول سفن الروم إليها، وهطلت أمطار غزيرة حولت المعسكر الصليبي إلى مستنقع فتهيئوا للعودة وغادروا دمياط بعد حصار دام خمسين يوماً، بعد أن أحرقوا جميع أدوات الحصار.

وعندما أبحر الأسطول الصليبى، هبت عاصفة عنيفة، لم يستطيع البحارة الذين كادوا أن يهلكوا جوعاً من السيطرة على سفنهم فغرق معظمهم وفشلت حملتهم.

أرسل نور الدين إلى صلاح الدين طالبا إياه بإيقاف الدعاء للخليفة الفاطمي، والدعاء بدلاً عن ذلك للخليفة العباسي في مساجد مصر. ولم يرغب صلاح الدين من الامتثال لهذا الأمر خوفا من النفوذ الشيعي في مصر. وأخذ يراوغ في تأخير الأمر. إلا أن نور الدين هدد صلاح الدين بالحضور شخصيا إلى القاهرة. فاتخذ صلاح الدين الإجراءات الشرطية اللازمة، لكن لم يتجرأ أحد على القيام بذلك. إلى أن جاء شيخ سني من الموصل زائر وقام في الجامع الكبير وخطب للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله في أول جمعة من سنة ٥٦٧ هـ / سبتمبر ١١٧١ م . لتحذو القاهرة كلها حذوه. في حين كان العاضد لدين الله (الحاكم الفاطمي) على فراش الموت مريضا .

بعد أصبح أسد الدين الحاكم الفعلي في البلاد بعد أن اختاره العاضد وزيرا له، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش، وقلده جميع أمور الدولة ، وأظهر شيركوه براعة في الحكم؛ فاستطاع في الفترة القصيرة التي قضاها في الوزارة أن يقبض على زمام الأمور في مصر، وأن يوزع الإقطاعيات على عساكره؛ غير أنه تُوفِّي بعد أن ظل في منصبه ما يقرب من ثلاثة أشهر، وخلفه في منصبه ابن أخيه صلاح الدين.

و أستكمل صلاح الدين انتزاع الخلافه من الفاطميين الذين كانت دولتهم في أفول، فنجح في عرقلة هجوم الصليبيين سنة ١١٦٩ بعد موت شيركوه، كما فرض نفسه كوزير للعاضد، الخليفة الفاطمي العاجز ، فكان صلاح الدين هو الحاكم الفعلي لمصر.

انضم إلى صلاح الدين عدد من أبناء عشيرته من الشام.
وبهذا وضعت أركان الدولة الأيوبية وتأسست فعليا، وإن كان صلاح الدين حتى ذلك الوقت رسميا يعمل في خدمة ملك دمشق نور الدين زنكي ويتبع له.

وبعد أن تم الدعاء للخليفة العباسي في أول جمعة بدلا من الخليفة الفاطمي ،ففي الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء في مساجد الفسطاط والقاهرة بإسقاط اسم العاضد من الخطبة ، وذكر اسم الخليفة العباسي محله، معلنا بذلك نهاية الخلافة الفاطمية، وتبعية مصر للخلافة العباسية.

واستقرت الأمور لصلاح الدين ونقل أسرته ووالده نجم الدين أيوب إليها.

و ذكر ابن الأثير ما حدث من خلاف بين نور الدين وصلاح الدين فقال : وفي سنة ٥٦٧هـ حدث ما أوجب نفرة نور الدين عن صلاح الدين وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلد الإفرنج والنزول على الكرك ومحاصرته ليجمع هو أيضا عساكره ويسير إليه ويجتمعا هناك على حرب الإفرنج والاستيلاء على بلادهم.

فرد عليه صلاح الدين من القاهرة في العشرين من محرم وكتب إليه يعرفه أن رحيله لا يتأخر، وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازما على قصد الكرك فوصل إليه وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه فأرسل كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين وأنهم عازمون على الوثوب بها وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد إليها فلم يقبل نور الدين عذره، وكان سبب تقاعده أن أصحابه والمقربين منه خوفوه من الاجتماع بنور الدين . وعندما لم يمتثل صلاح الدين لأمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين منها.

بعد موت نور الدين زنكي وفرار ابنه الصالح إسماعيل الطفل إلى حلب، عاد صلاح الدين إلى دمشق المدينة التي انطلق منها حيث أهله، بعد أن استقرت الأمور له في مصر ولقب صلاح الدين بالملك الناصر وثبت قدمه ورسخ ملكه. في السنوات اللاحقة أخذ صلاح الدين يبسط نفوذه على أقاليم الداخل السوري بهدف توحيد الصف الاسلامى هناك، مرجئا مواجهة الصليبيين إلى حين، وإن كان عادة ما ينتصر عليهم عندما تقع المواجهة.

عندما استقر حكمه فى سورية استدار صلاح الدين ليواجه الصليبيين الذين ظل فى سجال معهم إلى حين وفاته، وكان أعظم نصر له عليهم هو فتح القدس يوم ٢ أكتوبر ١١٨٧، فى معركة حطين.

المحاضرة الثالثة

صلاح الدين وتوحيد الجبهة الاسلامية

بعد أن استقرت الأمور لصلاح الدين ونقل أسرته ووالده نجم الدين أيوب إلي مصر ،وكان صلاح الدين لا يزال وزيرا حتى مات العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ٥٦٥هـ وبذلك انتهت الدولة الفاطمية وبدأت دولة بني أيوب (الدولة الأيوبية).

فعندما استقر صلاح الدين في منصب الوزارة في مصر أعد نفسه لإحداث تغيير جذري وشامل داخل مصر في كافة المجالات، وكانت مهمته هي التصدي للمشكلات التي أثارها مركزه. فرغم أن التناقض الظاهر من وجود وزير سني لدى خليفة فاطمي لم يكن بالوضع الجديد؛ لأنه طيلة قرن تقريبًا كان هناك وزراء سنيون على مراحل متقطعة في مصر، لكن حركة الجهاد الإسلامي التي قادها نور الدين محمود تحت راية دولة الخلافة العباسية، بالإضافة إلى قيام وحدة فَعَّالة بين بلاد الشام ومصر تقف في وجه الصليبيين، حَتَّمت على نور الدين محمود وبالتالي صلاح الدين الالتزام بإعادة مصر إلى حظيرة الولاء للعباسيين.

ولكن الضرورة دعته إلى تمهيد السبيل أمام التغيير رغم إلحاح نور الدين محمود وعتاب الخليفة العباسي؛ لأنه أدرك أن التغيير السريع لا بد أن يولد ردَّ فعلٍ فوري معاكس لا يمكن تدارك نتائجه

بعد نهاية الدولة الفاطمية في مصر، بدأت مرحلة جديدة في تاريخها عادت فيها مصر إلى العالم الإسلامي السُّني؛ لتؤدي تحت قيادة الأيوبيين دورًا مهمًّا في توحيد الجبهة الإسلامية ومواجهة الصليبيين، **كما قام صلاح الدين بجهود كبيرة فى إصلاح الأحوال الاجتماعية فى مصر؛ فاهتم ببناء المنشآت كالمستشفيات، وإصلاح المرافق والطرق، والإنفاق على المرضى والمحتاجين، كما عمل على توفير الحماية لمصر من خلال بناء قلعة صلاح الدين، لصد الهجمات الآتية من قِبَل الصحراء.**

ورغم ذلك رأى صلاح الدين أنه بحاجة إلى عمل خارجي لتحقيق ثلاثة أهداف:

الأول: توسيع رقعة الدولة الإسلامية.

الثانى: تحصين إنجازاته التى حققها فى مصر.

الثالث: تأمين حدود بلاده حتى لا يؤخذ على غِرَّة.

وأسفرت جهوده عن ضم المغرب الأدنى وبلاد النوبة واليمن

أمَّا في الشام فقد أثارت وفاة نور الدين محمود مشكلة تقسيم دولته الواسعة بين ورثته؛ مما هدد الوحدة الإسلامية، وكادت هذه المشكلة أن تعود بالمسلمين إلى حالة التمزق والانقسام التي كانوا عليها قبل أن يبدأ عماد الدين زنكي جهوده لوضع قاعدة صلبة لتوحيد الجبهة الإسلامية والتصدي للصليبيين. ولم يكن بين رجال الأسرة الزنكية من يصلح أن يكون خلفًا لنور الدين محمود الذي لم يترك سوى ابنٍ طفلٍ في الحادية عشرة من عمره اسمه إسماعيل، وابنة صغيرة، وزوجة هي عصمة الدين خاتون.

اتفق الأمراء في دمشق بعد مناقشات مستفيضة على تنصيب الصالح إسماعيل ملكًا خَلَفًا لوالده، وعيَّنوا شمس الدين محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدم قائدًا للجيش ، وأتابكًا له (وصيا لهذا الطفل)، وكتبوا إلى ولاة الأطراف بإقامة الخُطبة باسمه، وبخاصة صلاح الدين في مصر.

وقد جاءت وفاة نور الدين محمود (عام ٥٦٩هـ= ١١٧٤م) لتزيل الصعوبات الناجمة عن كون صلاح الدين نائبًا للأمير الزنكي في دمشق وحاكمًا فعليًّا لمصر، كما أنها في الحقيقة أعطت صلاح الدين مبررات مقنعة للدخول في مجال السياسة في بلاد الشام؛ حيث إن الصالح إسماعيل كان قاصرًا؛ لذلك قدم نفسه بوصفه النائب القوي الذي يمكن للصالح إسماعيل الاعتماد عليه.

والواقع أن صلاح الدين تَطَلَّعَ إلى ضم بلاد الشام إلى مصر بعد وفاة نور الدين محمود، بهدف استمرار السياسة التي بدأها عماد الدين زنكي، وجرى عليها ابنُه نور الدين محمود، والتي تقضي بتوحيد كلمة المسلمين، والقضاء على الصليبيين.

وهكذا ضمَّ صلاح الدين دمشق وقلعتها؛ من أجل حماية الصالح إسماعيل من خطر الصليبيين، والأمراء الطامعين.

وعوضا عن تأسيس إمبراطورية مركزية فقد ولى صلاح الدين أبناء عشيرته على إمارات وراثية في مختلف الأقاليم التي سيطر عليها.

فحكم أخوه العادل في الجزيرة وشرق الأردن وأخوه طوغتكين في اليمن وأبناء أخوته في بعلبك وحماه وأبناء شيركوه في حمص.

ثم أخذ صلاح الدين ينفذ سياسته، في إعادة بناء الجبهة الإسلامية المتحدة بحيث تمتد من شمالي العراق إلى بلاد الشام فمصر؛ ليتمكن -بعد ذلك- من البدء في حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، والمسلمون أشد ما يكونون قوةً وتماسكًا، ثم تابع تقدمه باتجاه الشمال.

. وجرت مفاوضات مع أمراء الزنكيين أسفرت عن أن يكون لصلاح الدين ما بيده من بلاد الشام، وللحلفاء الزنكيين ما بأيديهم، وأن تُضافَ إلى أملاكه بعض الأراضي الواقعة شمالي (حَمَاة) مثل: المَعَرَّة، وكفر طاب، وبعد توقيع الاتفاق رحل صلاح الدين عن حلب.

وقام صلاح الدين بعد ذلك بضم حلب وآمد وسنجار وغيرها من المدن والحصون؛ في سبيله لإتمام الوحدة التي يستطيع بها مواجهة الصليبيين ، وتحرير بيت المقدس .

في ذات الوقت كانت هناك محاولتان للتخلص من صلاح الدين قام بها طائفة الحشيشية بالتعاون مع الصليبيين ؛ رغبةً من الحشيشية في الانتقام منه لإسقاطه، وخوفًا –في نفس الوقت- من الصليبيين من أن يُتم صلاح الدين وحدة مصر والشام، ثم يفرغ لمواجهتهم.

العلاقة مع الصليبيين :

لقد مَرَّتِ العلاقات الأيوبية – الصليبية في عهد صلاح الدين بمرحلتين كبيرتين، امتدت **المرحلة الأولى من عام (٥٧٠هـ= ١١٧٤م) إلى عام (٥٨٢هـ= ١١٨٦م). وفي هذه المرحلة لم يكن صلاح الدين متفرغًا لجهاد الصليبيين**؛ إذ ليس من المعقول أن يوجه اهتمامه الكامل للجهاد ضدهم، وخلفه مجموعة من الأمراء المسلمين الذين يُشَكِّلُون تهديدًا محتملاً في الشمال والشرق؛ لذلك وَجَّهَ اهتمامه وجهوده نحو توحيد الجبهة الإسلامية.

وقد تخلل هذه المرحلة عقد المعاهدات، مثل المعاهدة التي عقدها مع الملك بلدوين الرابع في عام (٥٧٦ هـ=١١٨٠م)، والمعاهدة مع ريموند الثالث صاحب طرابلس في عام (٥٨١ هـ= ١١٨٥م) صاحب أنطاكية ، فعقد معه صلحًا لمدة ثلاث سنوات لتأمين هذه الجبهة، ثم قبل هدنة أخرى مع بلدوين ملك بيت المقدس عام ٥٧٩هـ / ١١٨٣م.

. وتُعَدُّ هذه المعاهدات من العوامل التي ساعدته على بَثِّ التفرقة بين صفوف الصليبيين، وإضعاف قوتهم.

وامتدت المرحلة الثانية من عام (٥٨٢هـ= ١١٨٦م) إلى عام (٥٨٨هـ= ١١٩٢م. وشهدت المواجهات الحاسمة بين الفريقين.

في أثناء الفترة التي عمل فيها صلاح الدين على إحياء الدولة الإسلامية المتحدة؛ استعدادا لخطة الجهاد التي رسمها لطرد الصليبيين، ارتبط بعقد هدنة مع الصليبيين مدتها أربع سنوات؛ حتى يتفرغ تماما لتنظيم دولته وترتيب أوضاعها الداخلية.

غير أن أرناط حاكم الكرك شاء بحماقته ألا يترك الصليبيين ينعمون بتلك الهدنة؛ حيث أقدم على عمل طائش نقض الهدنة وأشعل الحرب، فاستولى على قافلة تجارية متجهة من مصر إلى دمشق، وأسر حاميتها ورجالها، وألقى بهم أسرى في حصن الكرك ..

وعندما وجد صلاح الدين إعراضًا من جانب رينولد أرسل إلى الملك جاي لوزينان شاكيًا، ومطالبًا بالنصح لرينولد بإعادة الأسرى والأموال ؛ فلبَّى جاي دعوة صلاح الدين ، ولكنه أخفق في الضغط ولما حاول ملك بيت المقدس أن يتدارك الموقف أصرّ أرناط على رأيه ، ورفض إعادة أموال القافلة وإطلاق الأسرى، فزاد الأمر تعقيدا، ولم يبق أمام صلاح الدين سوى الحرب والقصاص على رينولد.

والواقع أن صلاح الدين لم يستطع أن يكظم غيظه أمام رفض رينولد. وما حدث من نقض الهدنة على هذا الشكل جعل الحرب أمرًا حتميا، ولم يجد مفر من إعلان الجهاد.

وهكذا انتهى الأمر إلى ضرورة المواجهة العسكرية بين المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي وبين القوات الصليبية .

فكانت موقعة حطين الكبرى .

.....

المحاضرة الرابعة

موقعة حطين وتحرير القدس

موقعة حطين:

اكتسبت موقعة حطين شهرة عالية ليس في تاريخ العالم الإسلامي فحسب بل في تاريخ العالم أجمع ؛ لأنها مهدت السبيل لفتح بيت المقدس وتحريره من أيدي الصليبيين .

لم تكن مجرد معركة طارئة مثل مئات المعارك التاريخية ، وإنما تميزت عن غيرها بأنها قد سبقت بمعارك كثيرة كانت بمثابة التمهيد لها ، كما أنها قد سبقت بأحداث عظام على أرض الواقع .

وأبرز تلك الأحداث هي القضاء على نظام الحكم الفاطمي، وتوحيد الجبهة الإسلامية بعد فترة عصيبة من الفرقة والضعف.

وقد سبقت موقعة حطين عدة معارك عسكرية كانت تهدف إلى توحيد المسلمين، وكان للتوحيد أساليب بالإقناع واللين حيناً أو باستعمال القوة حيناً آخر. في البدء اجتاحت قواته في الربيع الباكر من عام ١١٨٧ م مناطق قلعتي الكرك وكراك دي مونريال، وبعد شهرين بدأ القتال ضد الصليبيين، واحتشدت قوات المسلمين المُنْطلِقَة مِنَ دمشق نحو بحيرَةَ طبريا وضمت جيش الشام الموحد قوات من دمشق وحلب والموصل، ووافاه جيش من مصر بقيادة الملك العادل فضمّه إلى جيش الشام ، وسار بهما إلى تل عشترة .

في أيار مايو ١١٨٧ م أبيدت إلى الشمال الشرقي من الناصرة فصيلة كبيرة مؤلفة أساسا من الفرسان الصليبيين، ولقي الأستاذ الأكبر لجمعية الأوسبيتاليين روجيه دي مولان مصرعه.

كانت قوات المسلمين بقيادة صلاح الدين تضم ١٢ ألف فارس ، و١٣ ألفا من المشاة وقوة كبيرة من المتطوعين ورجال الاحتياط، وفي الجانب الآخر حشد الصليبيون ٢٢ ألفا بين فارس ورجل. فعبرت جيوش المسلمين نهر الأردن جنوبي طبريا ، وسارت في اليوم التالي إلى تل كفر سبت (كفر سبيت) في الجانب الجنوبي الغربي من طبريا، وحاولت الاشتباك مع الصليبيين ، فرفضوا (الصليبين) القتال ، وفي ٢ يوليو استولت جيوش صلاح الدين المسلمة على طبرية قاطعا على عدوه طريقه إلى الماء.

عبّأ صلاح الدين قواه واستعد لمنازلة الصليبيين وخوض معركة الجهاد الكبرى التي ظل يعد لها عشر سنوات منتظرا الفرصة المواتية لإقدامه على مثل هذا العمل، ولم تكن سياسة أرناط الرعناء سوى سبب ظاهري لإشعال حماس صلاح الدين، وإعلان الحرب على الصليبيين.

غادرت قوات صلاح الدين التي تجمعت من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر مدينة دمشق في المحرم (٥٨٣هـ = مارس ١١٨٧م) واتجهت إلى حصن الكرك فحاصرته ودمرت زروعه ، ثم اتجهت إلى الشوبك، ففعلت به مثل ذلك، ثم قصدت بانياس بالقرب من طبرية لمراقبة الموقف.

وفي أثناء ذلك تجمعت القوات الصليبية تحت قيادة ملك بيت المقدس في مدينة صفورية ، وانضمت إليها قوات ريموند الثالث أمير طرابلس ، ناقضا الهدنة التي كانت تربطه بصلاح الدين، مفضلا مناصرة قومه، على الرغم من الخصومة المتأججة بينه وبين ملك بيت المقدس.

كان صلاح الدين يرغب في إجبار الصليبيين على المسير إليه، ليلقاهم وهم متعبون في الوقت الذي يكون هو فيه مدخرًا قواه، وجهد رجاله، ولم يكن من وسيلة لتحقيق هذا سوى مهاجمة طبرية، حيث كانت تحتمي بقلعتها زوجة ريموند الثالث ، فثارت ثائرة الصليبيين وعقدوا مجلسًا لبحث الأمر، وافترق الحاضرون إلى فريقين: أحدهما يرى ضرورة الزحف إلى طبرية لضرب صلاح الدين، على حين يرى الفريق الآخر خطورة هذا العمل لصعوبة الطريق وقلة الماء، وكان يتزعم هذا الرأي ريموند الثالث الذي كانت زوجته تحت الحصار ، لكن أرناط اتهم ريموند بالجبن والخوف من لقاء المسلمين، وحمل الملك على الاقتناع بضرورة الزحف على طبرية.

وقد واجه الجيش الصليبي المتقدم عدة مشكلاتٍ أثَّرَتْ تأثيرًا سلبيًّا على قدراته القتالية، منها:

- انحطاط روح أفراده المعنوية، بعد الانقسام في الرأي بين القادة؛ فساروا مُكرَهين بين مؤيد للزحف ومعارض له.

- اشتداد حرارة الجو اللافحة في شهر تموز.

- افتقارهم إلى الماء .

ـ صعوبة الطريق الذي بلغ طوله ستة عشر ميلاً.

ـ تعرضهم لهجمات المسلمين الخاطفة.

بدأت القوات الصليبية الزحف في ظروف بالغة الصعوبة في (٢١ من ربيع الآخر ٥٨٣هـ = ١ من يوليو ١١٨٧م) تلفح وجوهها حرارة الشمس، وتعاني قلة الماء ووعورة الطريق الذي يبلغ طوله نحو ٢٧ كيلومترا، في الوقت الذي كان ينعم فيه صلاح الدين وجنوده بالماء الوفير والظل المديد، مدخرين قواهم لساعة الفصل، وعندما سمع صلاح الدين بشروع الصليبيين في الزحف، تقدم بجنده نحو تسعة كيلومترات، ورابط غربي طبرية عند قرية حطين.

أدرك الصليبيون سطح جبل طبرية المشرف على سهل حطين في (٢٣ من ربيع الآخر ٥٨٣هـ = ٣ من يوليو ١١٨٧م) وهي منطقة على شكل هضبة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ٣٠٠ متر، ولها قمتان تشبهان القرنين، وهو ما جعل العرب يطلقون عليها اسم قرون حطين.

وقد حرص صلاح الدين على أن يحول بين الصليبيين والوصول إلى الماء في الوقت الذي اشتد فيه ظمؤهم، كما أشعل المسلمون النار في الأعشاب والأشواك التي تغطي الهضبة، وكانت الريح على الصليبيين فحملت حر النار والدخان إليهم، فقضى الصليبيون ليلة سيئة يعانون العطش والإنهاك، وهم يسمعون تكبيرات المسلمين وتهليلهم الذي يقطع سكون الليل، ويهز أرجاء المكان، ويثير الفزع في قلوبهم.

وعندما أشرقت شمس يوم السبت الموافق **(٢٤ من ربيع الآخر ٥٨٣هـ = ٤ من يوليو ١١٨٧م)**(يحفظ التاريخ حسب الدكتور) اكتشف الصليبيون أن صلاح الدين استغل ستر الليل ليضرب نطاقا حولهم، وبدأ صلاح الدين هجومه الكاسح، وعملت سيوف جنوده في الصليبيين، فاختلت صفوفهم، وحاولت البقية الباقية أن تحتمي بجبل حطين، فأحاط بهم المسلمون، وكلما تراجعوا إلى قمة الجبل، شدد المسلمون عليهم، حتى بقي منهم ملك بيت المقدس ومعه مائة وخمسون من الفرسان، فسيق إلى خيمة صلاح الدين ، ومعه أرناط صاحب حصن الكرك وغيره من أكابر الصليبيين .

لم تكن هزيمة الصليبيين في حطين هزيمة طبيعية، وإنما كانت كارثة حلت بهم؛ حيث فقدوا زهرة فرسانهم، وقُتلت منهم أعداد هائلة، ووقع في الأسر مثلها، حتى قيل: إن من شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل.

وغدت فلسطين عقب حطين في متناول قبضة صلاح الدين، فشرع يفتح البلاد والمدن والثغور الصليبية واحدة بعد الأخرى، ولم يبقى أمامه سوى التوجه لفتح بيت المقدس.

كانت هزيمة الصليبيين في معركة حطين هزيمة كارثية ، حيث فقدوا فيها زهرة فرسانهم، وقتل فيها أعداد كبيرة من جنودهم وأسر فيها أعداد كبيرة أيضاً .

تحرير القدس

بعد الانتصار الكبير للمسلمين بقيادة صلاح الدين فى موقعة حطين أصبح الموقف العسكري شديد الخطورة على مملكة بيت المقدس، وإمارتي طرابلس وأنطاكية؛ إذ لم يبقَ أمامه -بعد أن دمر أعداءه- إلا أن يفتح حصون الأرض المقدسة، وبخاصة أنه نتج عن خسارة الصليبيين، الذين ألقوا بكل ثقلهم في معركة حطين، أن وقع عدد كبير من أمرائهم وقوادهم وفرسانهم في الأسر، وعلى رأسهم الملك جاي لوزينان، حتى لم يبق لديهم من يصلح للقيادة.

يُضَافُ إلى ذلك أن الغرب الأوروبي لم ينتبه إلى الخطر قبل عام (٥٨٣هـ= ١١٨٧م)؛ ولذا فإن احتمال مجيء حملة صليبية سوف يستغرق زمنًا؛ لذلك شرع صلاح الدين يفتح المدن والحصون الصليبية واحدة بعد أخرى، فتحًا سريعًا ومتواصلاً، مُرَكِّزًا ضرباته المباشرة على الموانئ المهمة.

والواقع أن عملية الفتح لم تكن حربًا بالمعنى العسكري المفهوم للكلمة، بل أشبه بنزهة عسكرية؛ إذ كانت المقاومة ضعيفة، مما سَهَّل للمسلمين الانتشار والتقدم، فكانت المدينة أو القلعة تسارع إلى الاستسلام لمجرد وصول المسلمين إليها، وذلك لعدم وجود قوة تدافع عنها، وإذا قاومت فإن مقاومتها تبدو ضئيلة. وقد قام صلاح الدين في هذا الوقت بفتح قلعة طبرية، وفتح عكا، ومدن الجليل، والمدن الساحلية .

ويبدو أن صلاح الدين تخلى عن حذره هذه المرة أيضًا، حين منح الصليبيين -بعد أن فتح المدن والحصون المشار إليها- حرية البقاء فيها أو الخروج منها، فذهب معظمهم إلى صور؛

ذلك أنه سرعان ما أدرك أن أمر هذه المدينة غدا صعبًا فتركها، وآثر الانصراف إلى غيرها؛ فقام بفتح عسقلان.

بعد أن فرغ صلاح الدين من فتح عسقلان والمدن المجاورة، تطلع إلى تحقيق هدفه الذي طالما جال بخاطره، وعمل له، وهو تحرير بيت المقدس تمهيدًا لطرد الصليبيين من المنطقة؛ فأخذ يستعد لتنفيذ هذه الخطوة، وحتى يقطع الطريق على احتمال هجوم صليبي بحري على الساحل الشامي أثناء حصاره لبيت المقدس؛ أرسل إلى قائد أسطوله في مصر حسام الدين لؤلؤ أن يخرج بأسطوله من مصر لحماية الشواطئ، وقطع الطريق على مراكب الصليبيين والاستيلاء عليها.

وبذلك يكون قد ضمن حماية مؤخرة جيشه البري، وأقفل حلقة الحصار على المدينة المقدسة؛ ومن ثَمَّ دعا أهلها إلى إرسال وفد للتباحث في الشروط التي بمقتضاها تستسلم المدينة.

ويبدو أن سكان بيت المقدس قد أدركوا بعد تساقط المدن والمعاقل الداخلية والساحلية بيد صلاح الدين، أنهم أضحوا محاصرين فعلاً؛ فأرسلوا إليه وفدًا اجتمع به أمام عسقلان ، فعرض عليهم تسليم المدينة بالشروط نفسها التي استسلمت بها بقية المدن والمعاقل الصليبية، أي يؤمنهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم، وأن يسمح لمن يشاء بالخروج من المدينة سالمًا، ولكن سكان بيت المقدس رفضوا أن يسلموا المدينة، عندئِذٍ أقسم صلاح الدين أنه سوف ينالها بحد السيف.

ثم كرر صلاح الدين عرضه على سكان بيت المقدس؛ وذلك رغبة منه في عدم استخدام العنف مع مدينة لها حرمتها وقدسيتها عند المسلمين والنصارى على السواء، لكنهم أصروا على موقفهم الرافض؛ عندئذٍ قرر صلاح الدين اقتحام المدينة عنوة.

واجتمع داخل المدينة ما بلغ ستين ألفًا بين فارس وراجل سوى النساء والأطفال، بل إن الصليبيين قاوموا الجيش الأيوبي الزاحف، واستطاعوا قتل أحد الأمراء وجماعة ممن كانوا معه.

وقد وصل صلاح الدين إلى المدينة في (١٥ من رجب عام ٥٨٣هـ= ٢٠ من سبتمبر عام ١١٨٧م) وعسكر أمام أسوارها الشمالية، والشمالية الغربية، وشرع في مهاجمتها لكنه جُوبِه باستحكامات هذا الجانب المتينة المشحونة بالمقاتلين، بالإضافة إلى أشعة الشمس التي كانت

تواجه عيون قواته فحجبت عنهم الرؤية الضرورية للقتال حتى بعد الظهر؛ لذلك طاف حول المدينة مدة خمسة أيام يبحث عن مكان يصلح للجيش أن يعسكر فيه إلى أن عثر على موضع في الجانب الشمالي نحو العمود وكنيسة صهيون، حيث الأسوار أقل متانة، فانتقل إلى هذه الناحية في (٢٠ من رجب = ٢٥ من أيلول)، وحين حَلَّ الليلُ بدأ بنصب المنجانيق.

وتراشق الطرفان بقذائف المنجانيق، وقاتل أهل بيت المقدس بحميَّة وكذلك المسلمون، حيث كان كل فريق يرى ذلك دِينًا عليه، وحتمًا واجبًا فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني.

ولما رأى الصليبيون شدة القتال، وشعروا بأنهم أشرفوا على الهلاك؛ عقدوا اجتماعًا للتشاور، فاتفقوا على طلب الأمان؛ فأرسلوا وفدًا إلى صلاح الدين من أجل هذه الغاية، واشترطوا احترام مَن في المدينة من الصليبيين، والسماح لمن يشاء بمغادرتها.

كانت هذه الشروط هي نفسها التي سبق لصلاح الدين أن عرضها عليهم من قَبْلُ، لكنه رفض قبولها الآن؛ لأنه أوشك أن يفتح المدينة عَنْوَةً، وقال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي، وجزاء السيئة بمثلها.

وازداد موقف الصليبيين في الداخل سوءًا، وراحوا ينظرون بقلق إلى المصير الذي ينتظرهم، ولم يسعهم إلا أن يحاولوا مرة أخرى إقناع صلاح الدين بالعفو عنهم، ولكن صلاح الدين سبق له أن أقسم بأنه سوف يفتح بيت المقدس بحد السيف، ولن يحله من قسمه سوى إذعان المدينة بدون قيد أو شرط.

نتائج انتصارات صلاح الدين:

ما كاد القتال ينتهي في حطين، وتتحقق خسارة الصليبيين، حتى أسرعت الرسل إلى غرب أوربا لإعلام ملوكها وأمرائها بما آلت إليه أوضاع الصليبيين في الشرق، ولم يلبث أن اقتفى أثرهم رسلٌ آخرون عقب فتح بيت المقدس.

والواقع أن تلك الخسارة وهذا الفتح أحدثا ردَّ فعل عنيف في المجتمع الغربي الذي دُعِرَ لنبأ الكارثتين، واعتقد النصارى في الغرب أنهما جاءتا نتيجة إهمالهم في الاستجابة للاستغاثات المتكررة التي جاءت من مملكة بيت المقدس في السنوات الأخيرة .

وأدرك من اجتمع في (صور) من الصليبيين أنه ما لم تصلهم نجدة من الغرب، فإن فرص الاحتفاظ (بصور) ستتضاءل بعد أن ضاع كل أمل في استعادة المناطق التي فقدوها، ولم يلبث (كونراد دي مونتفيرات) أن أرسل (جوسياس) رئيس أساقفة (صور) إلى غرب أوربا في منتصف عام (٥٨٣هـ= أواخر صيف عام ١١٨٧م)؛ ليطلب من البابا وملوك أوربا وأمرائها النجدة العاجلة.

وهو الأمر الذى مهد للحملة الصليبية الثالثة.

المحاضرة الخامسة

الحملة الصليبية الثالثة

بعد فشل الحملة الصليبية الثانية، أصبح لنور الدين السيطرة على دمشق ووحد سوريا تحت رايته، وكان وصول نبأ سقوط مملكة القدس إلى أوروبا بعد معركة حطين صاعقًا. فما أن علم البابا أوربان الثاني بما حدث ، حتى توفي من وقع الصدمة. ودعا خليفته ، البابا جريجورى الثامن ، بمنشور باباوي بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١١٨٧ م ودعا فيه الكاثوليك إلى حملة صليبية جديدة ، ، وبعد شهرين حلّ البابا كليمنت الثالث مكان البابا جريجورى الثامن واستكمل المهمة.

الحملة الصليبية الثالثة

كما أسفرت تلك الجهود التي قام بها جوسياس رئيس أساقفة صور إلى غرب أوربا في منتصف عام (٥٨٣هـ= أواخر صيف عام ١١٨٧م)؛ ليطلب من البابا وملوك أوربا وأمرائها النجدة العاجلة، عن قيام حملة صليبية ضخمة هي الحملة الثالثة في سلسلة الحملات الصليبية في اتجاهها إلى الشرق، **فقامت الحملة الصليبية الثالثة من سنة ١١٨٩ م إلى سنة ١١٩٢ م، واشترك فيها بوجه الخصوص الإقطاعيون الكبار والفرسان من بلدان أوروبا الغربية، وكانت المصالح التجارية في الشرق للدول الإقطاعية قد اكتسبت مكانا مهما في سياساتها.**

قاد الجيوش الصليبية كل من ملك فرنسا فيليب أوجست الثاني، ملك انجلترا ريتشارد الذي لقب لاحقا بقلب الأسد، وملك الجرمان (ألمانيا) فريدريك الأول بربروسا، وتحركت القوات الألمانية قبل غيرها في ١١ مايو ١١٨٩ والتي كان قوامها قرابة ٣٠ ألفاً من الفرسان والمشاة بقيادة ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد، وملك فرنسا فيليب أغسطس، والإمبراطور الألماني (فريدريك بربروسا).

غير أنَّ غرق الإمبراطور الألماني أدَّى لاختلال نظام جيشه، وعجز ابنه عن السيطرة على الجند؛ **فعاد معظم أفراده إلى بلادهم، وواصل الباقون طريقهم إلى أنطاكية بقيادة فريدريك السوابي ومعهم جثة الإمبراطور.**

لم يهنأ صلاح الدين بفتح عكا أكثر من عامين، فسرعان ما استجمع الصليبيون صفوفهم وتوجهوا نحو هذه المدينة للاستيلاء عليها بعد فشل (صلاح الدين) في فتح (صور).

غير أن صلاح الدين لم يكن باستطاعته أن يتفرغ للدفاع عن عكا وحدها، إذ اضطُرَّ أن يوزع قواته على أنحاء متفرقة من البلاد للدفاع والمراقبة؛ لذلك طلب صلاح الدين المساعدة من حكام المسلمين في الشرق والغرب، فكتب إلى أمراء الجزيرة والموصل، الذين لَبَّوْا نداء المساعدة على الرغم مما كان بينهم وبينه من فتور، مما يدل على وعي إسلامي للخطر الصليبي، وقد أثبت حصار عكا أن ثمة توازنًا بين قوتي الفريقين إلى حَدٍّ ما، إذ لم يستطع الصليبيون اقتحام المدينة، واستطاع المسلمون في داخلها الصمود، وكذلك لم يستطع صلاح الدين إزاحتهم؛ فتشبث كل طرف بموقعه، في انتظار وصول الإمدادات التي تكفل له القيام بالهجوم .

وفي (١٢ من جُمَادَى الآخرة= ٧ من يوليو) وصل أحد العَوَّامين يحمل آخر استغاثة من المدينة؛ إذ لن تستطيع الحامية أن تمضي في صمودها ما لم تصل إليها المساعدة، وما دار من قتال في (١٦ من جمادى الآخرة= ١١ من يوليو) يُعَدُّ آخرَ ما بذله المسلمون من جهد؛ حيث عرضوا التسليم في اليوم التالي، **وكان أن تَدَخَّلَ كونراد، وعقد اتفاقية مع حامية عكا دون موافقة صلاح الدين؛ تضمنت ما يلي:**

- استسلام عكا بكُلِّ ما تحويه من سفن ومستودعات وذخيرة.

- يؤدي المسلمون للصليبيين فدية مقدارها مائتا ألف دينار.

- يطلق المسلمون سراح ألف وخمسمائة أسير صليبي، بالإضافة إلى مائة مُعينين من جانبهم.

- يرد المسلمون صليب الصلبوت إلى الصليبيين.

- يخرج المسلمون من المدينة سالمين.

وعندما اطَّلع صلاح الدين على فحوى الاتفاق رفضه بشدة، وعَظُمَ عليه الأمر، فاجتمع مع أركان حربه للتشاور وتقييم الوضع، وفي الوقت الذي كان يُعِدُّ فيه الجواب للحامية، **فوجئ بألوية الصليبيين ترفرف فوق أبراج عكا، وكان ذلك يوم الجمعة (١٧ من جُمادى الآخرة= ١٢ من يوليو)؛ إذ عقدت الحامية الاتفاقية باسمه، ونتيجة لما اتصف به من الشرف لم يسعه إلا الالتزام بها ، ثم أمر بنقل معسكره إلى (شفرعم) على الطريق المؤدية إلى صفورية ، بعيدًا عن المدينة ، إذ لم يبق من مبرر لبقاء قواته على حصار عكا، بالإضافة**

إلى أنه خشي من إقدام الصليبيين على مهاجمته. وهكذا دخل الصليبيون عكا بعد أن حاصروها قرابة عامين

ويبدو أن الصليبيين ماطلوا في تنفيذ الشق المتعلق بهم، وكان صلاح الدين قد أرسل لهم القسط الأول من المال والرجال الأسرى، ولما طالبهم بتنفيذ البند الخاص بهم كاملاً، رفضوا؛ عندها أدرك عزمهم على الغدر، ورفض أن يسلمهم ما تبقى من المال والأسرى، فما كان من ريتشارد قلب الأسد إلا أن أجرى مذبحة غادرةً بشعة داخل عكا، حين أمر بقتل ثلاثة آلاف أسير مسلم، وبكى صلاح الدين متأثرًا، ولكنه لم يسمح لأحد بالانتقام منهم ردًّا على ما ارتكبه الملك الإنجليزي إلا أنه أمر برد الأسرى الصليبيين الذين جلبهم من دمشق لإجراء التبادل.

وحدث في هذه الأثناء أن غادر فيليب أغسطس عكا إلى صور في (٧ من رجب= ٣١ من تموز) نظرًا لاعتلال صحته، ثم أبحر من صور إلى برنديزي بعد ثلاثة أيام. وإذ ارتحل الملك الفرنسي أضحى الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد قائدًا للجيش، وتولى مباشرة القتال مع صلاح الدين، **حتى تم توقيع صلح الرملة في (٢٢ من شعبان ٥٨٨هـ= ٢ من سبتمبر ١١٩٢م)، والذي نص على:** **(مهم جدا حفظ حسب الدكتور)**

- يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور شمالاً إلى يافا جنوبًا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف.

- تكون عسقلان بأيدي المسلمين.

- يتقاسم المسلمون والصليبيون اللد والرملة مناصفةً.

- يحق للنصارى زيارة بيت المقدس بحرية.

- للمسلمين والنصارى الحق في أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الفريق الآخر.

- مدة المعاهدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

واشترط صلاح الدين دخول بلاد الحشيشية في الصلح ، بمعنى أن المناطق التي يسيطر عليها هؤلاء تُعَدُّ جزءًا من المناطق الإسلامية التي تشملها المعاهدة، وفي المقابل اشترط ريتشارد قلب الأسد دخول كل من صحب أنطاكية وطرابلس .

أقام صلاح الدين في بيت المقدس إلى أن علم برحيل ريتشارد قلب الأسد؛ فالتفت إلى تنظيم الشئون الإدارية لإقليم فلسطين، غير أن العمل ألحَّ عليه بضرورة المسير إلى دمشق.

وفي ذات الوقت فإنَّ ما تجمع في أثناء السنوات الأربع التي أمضاها صلاح الدين في القتال من مشاكل إدارية وتراكم الأعمال التنظيمية، استدعى أن يؤجل زيارته لمصر، وتأدية فريضة الحج، وتَطلَّبَ منه بذل مجهودٍ كبيرٍ لتعويض ما خَرَّبته الحروب.

وفي (١٦ من صفر عام ٥٨٩هـ= ٢١ من فبراير عام ١١٩٣م) انتابته حُمَّى صفراوية استمرت اثنى عشر يومًا،ثم توفى بعدها ليلقى ربه بعد جهود كبيرة بذلها فى توحيد المسلمين والتصدي للعدوان الصليبى.

وقد **أخذت الجبهة الإسلامية في التداعي بعد وفاة صلاح الدين عام (٥٨٩هـ= ١١٩٣م)، ولم تلبث أن نشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبى،** فاتفق أمراء الشام على ألا يعترفوا بسيادة العزيز عثمان صاحب مصر الذي اتصف بالطموح السياسي، وزعم أن له السيادة عليهم جميعًا.

وكان هذا الرفض نابعًا من أهمية دور دمشق في توجيه السياسة الأيوبية، غير أن الأفضل عليّ صاحب دمشق اتصف بسوء السيرة؛ فقد احتجب عن الرعية ، واشتغل بلهوه مما أدى إلى كراهية الناس له؛ فقد وضع ثقته في وزيره ضياء الدين بن الأثير، فأساء التصرف في أمور الرعية، وخالف نهج والده في الحكم؛ فأقصى أمراء والده ومستشاريه بتأثير من وزيره؛ فهرب هؤلاء إلى القاهرة مستنجدين بالعزيز عثمان الذي رفعهم وأعزهم ، فالتفوا من حوله ، واعترفوا به زعيمًا على الأيوبيين.

مَرَّتْ الدولة الأيوبية خلال تلك الفترة بعدة تطورات سريعة انتهت بتوحيدها مرة أخرى تحت زعامة العادل أخي صلاح الدين بعد صراعات طويلة بين أبناء صلاح الدين فيما بينهم، وبينهم من جهة وبين عمهم العادل من جهة أخرى. (مناقشة ٦)

وهكذا أعاد العادل توحيد الدولة الأيوبية تحت سلطانه، ولكنه ارتكب الخطأ نفسه الذي ارتكبه صلاح الدين عندما وَزَّعَ إرثه بين أولاده وإخوته؛ مما أدَّى إلى إضعاف الأيوبيين؛ لأن هذا التوزيع سَبَّبَ التنافر والتحاسد بين الإخوة، وأعاد من جديد المأساة التي حدثت بعد وفاة صلاح الدين . .....

المحاضرة السادسة

الحملة الصليبية الرابعة والخامسة

الحملة الصليبية الرابعة

تعد هذه الحملة نتيجة مباشرة لوفاة صلاح الدين الأيوبي في شهر صفر سنة ٥٨٩هـ ، فمنذ وفاته دعا البابا (أنوسنت الثالث) إلى حرب صليبية ضمن خطة وضعها للكنيسة على رأسها مشروع محو آثار حروب صلاح الدين في الشرق واغتصاب بيت المقدس من المسلمين . فدعا في منتصف سنة ٥٩٤هـ (هام)إلى حملة صليبية رابعة ، واستجاب له فيها عدد من الأمراء وتولى قيادتها عدد من البارونات الفرنسيين وبعد مداولات بين أمراء الحملة وقوادها رأوا أن يتجهوا بها إلى مهاجمة مصر أولاً ، ثم بيت المقدس بعد ذلك.
(ملاحظة - دليل على ان الهدف استعماري لا ديني)

وبدأت الاستعدادات بالتعاون مع البندقية لتمدهم بالسفن ، واحتشد الصليبيون في البندقية في صيف ٥٩٨ هـ ،غير أن البنادقة اشترطوا على الصليبيين ثمناً لهذا التعاون أن يهاجموا مدينة(زارا) ويستردوها من ملك هنغاريا ، واستجاب الصليبيون لذلك من غير موافقة البابا وعلى الرغم من غضبه وإصداره قرار الحرمان ضد الحملة كلها ثم قصره على البنادقة أخيراً.

وبينما يستعد الصليبيون للاتجاه نحو مصر إذا بثورة تنشب في القسطنطينية تطيح بالإمبراطور إسحاق الثاني ، فيفر ابنه الكسيوس قائد الثورة إلى الغرب بعد فشل ثورته طالباً المساعدة من البابا ومن الصليبيين عارضاً في مقابل ذلك إخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية ومساعدة الصليبيين في حملتهم ضد مصر . وصادف ذلك هوى في نفس البابا ومصلحة لدى البنادقة ، وتشفياً من الصليبيين في الدولة البيزنطية .

وقد اتجهت جموع الصليبيين إلى القسطنطينية واستولت عليها عام ٦٠٠ هـ ، وقاموا بتخريبها والعدوان على أهلها حتى تمنى بعض البيزنطيين أن لو كانت القسطنطينية قد وقعت في أيدي المسلمين ، وقد أحرق الصليبيون بعض الكنائس والجامع القديم الذي بني في عهد بني أمية وقاموا بسلب المدينة .

واستولت الكنيسة الكاثوليكية على الكنيسة الأرثوذكسية ورأسها أول كاثوليكي منذ إنشائها .

ولقد كان من نتائج هذه الحملة (الرابعة) أن فترت همة المحاربين فى الحروب الصليبية الآتية لاستيقان الناس بأنها غارات بربرية وليست حروباً دينية .

كما عمقت هذه الحمل الخلاف بين مسيحيي الشرق ومسيحيي الغرب ، وجعلت الطريق البري إلى الشام أشد وعورة وأعظم خطراً.

كما أغرت كثيرين من فرسان الصليبيين فى الشام إلى أن يتركوا الشام ومتاعبه ويتجهوا إلى قبرص أو البلقان ليهنئوا بحياة مستقرة.

وبالجملة فقد أضعفت الحملة الصليبية الرابعة مركز الصليبيين فى الشرق الإسلامى وزعزعت مكانتهم.

لذلك ذكر بعض مؤرخي الحروب الصليبية (أن الحملة الصليبية الرابعة جاءت نذيراً بفشل الحركة الصليبية بأكملها .)

الحملة الصليبية الخامسة

بعد سبع عشرة سنة من الحملة الرابعة قرَّر قادة أوربا أن يستدركوا ما فاتهم من الهجوم على مصر والاستيلاء عليها؛ لذا تجهَّزوا وحشدوا الحشود.

أهم أسبابها :

-انتصارات صلاح الدين الأيوبي الحاسمة

-انقسام الدولة الأيوبية ونشوب الصراعات بين أفراد الأسرة الحاكمة.

-تعجيل الصليبيين بضربة تكون قاصمة للمشرق العربى وهو فى ظل الانقسام الأيوبى.

- سياسة العادل الأيوبى (وريث صلاح الدين) التى ركزت على استمرار عقد الهدن مع الأطراف الصليبية كونها تحضيراً لهجوم كاسح عليها.

العوامل المباشرة للحملة :

-اقتناع الأوربيين بضرورة ضرب مصر لتأمين ممتلكاتهم فى الشام.

-توحيد العادل للقوى الإسلامية في مصر والشام .

-استعادة بيت المقدس.

وكانت تخطيط الحملة قيام بعض القوات الصليبية بمهاجمة نابلس للتمويه على هدف الحملة الرئيسي (وهو غزو مصر) ، وفي الوقت نفسه ، تقوم القوات الرئيسة بمهاجمة دمياط تمهيداً للاستيلاء على مصر كلها.

لكن مجلس الحرب أرجأ تنفيذ هذه الخطة لوقت لاحق وذلك بسبب قلة القوات وعدم توافر السفن اللازمة لنقل جنود الحملة إلى مدينة دمياط استعداداً للقيام بهذا الغزو الكبير.

وكانت هناك خطة أخرى تهدف إلى مهاجمة بيت المقدس ، لكن المجلس ارتأى عدم تنفيذها لأنه لا توجد مياه كافية للقوات.

وبعد أن تعذر على القادة تنفيذ الخطتين ، قرروا مهاجمة دمشق لكن عندما علموا بخروج العادل من مصر إلى الشام غيّروا رأيهم وخرجوا من عكا يقصدونه.

وفي أوائل شعبان ٦١٤هـ/ نوفمبر سنة ١٢١٧م خرج الصليبيون من عكّا لكي يشنوا هجومًا مباغتًا ضد مصر في جيش ضخم لم تشهد بلاد الشام مثله منذ أيام الحملة الصليبية الثالثة، بيد أن فوضى القيادة في الجيش الصليبي الضخم جعلته عاجزًا عن القيام بأي عمليات عسكرية حقيقية ، وسرعان ما عاد الجيش إلى داخل أسوار عكا لكي يظل هادئًا حتى المحرم ٦١٥هـ/ إبريل سنة ١٢١٨م حين وفدت قوات صليبية جديدة من أوربا، وقرر مجلس الحرب الصليبي الذي اجتمع في عكا مهاجمة دمياط على دلتا النيل.

وعند أوائل شهر ربيع الأول ٦١٥هـ/ نهاية شهر مايو سنة ١٢١٨م وصلت القوات الصليبية قُبَالة دمياط التي كانت بها قلعة حصينة ، كما كانت أهم ثاني ميناء في مصر بعد الإسكندرية، وخرج الكامل أكبر أبناء السلطان العادل وخليفته؛ للدفاع عن دمياط ضد الصليبيين الذين أقاموا معسكرهم على الشاطئ الغربي للنيل وأحاطوه بخندق يفصلهم عن عدوِّهم، ويحميهم منه. وظل الوضع متجمدًا قُرابة أربعة أشهر حتى امتلكوا برج السلسلة، ولكن القوات المصرية ظلت تقاتلهم في البر وفي فرع النيل الدمياطي.

وقد توفى الملك العادل وتولى الملك الكامل.

وفي أثناء الحصار، قبل سقوط المدينة، كان السلطان الكامل قد يئس من إمكانية صمود دمياط ، كما أنه كان غير مهتم بالمقدسات، ويستطيع التنازل عن أي شيء بسهولة ويُسر

في سبيل أمانه الشخصي وأمان ملكه، فأرسل في نهاية شهر أكتوبر يقترح على الصليبيين الجلاء عن مصر مقابل أن يأخذوا الصليب المقدس، وأن يمتلكوا مدينة بيت المقدس ووسط فلسطين والجليل، على أن يدفع المسلمون جزية عن الحصون التى تبقى بأيديهم .

جمّد الصليبيون نشاطهم في دمياط على مدى ثمانية عشر شهرًا كاملة، وعندما وصلت قوات إضافية من أوربا وعكا بدءوا يزحفون جنوبًا حتى مدينة فارسكور في منتصف شهر يوليو سنة ١٢٢١م، وهذا هو وقت فيضان النيل السنوي الذي يشتد في شهر أغسطس، وعبرت قوات الجيش المصري لكي تحاصر الصليبيين قرب المنزلة، ثم بدأ فيضان النيل وفتحت الجسور فأغرقت كل الطرق أمام الجيش الصليبي المحاصر.

وانتصر المسلمون فى المنصورة حيث أغرقهم الكامل بمياه الفيضان عندما أمر بفتح الترع المليئة بالمياه فأحاطت بالصليبين و أعاقت تحركهم فطلبوا الصلح مقابل الجلاء عن دمياط.

و رحب الكامل بهذا الطلب فجلا الصليبيون عن دمياط سنة٦١٨هـ/٧سبتمبر ١٢٢١

وأخذت سفن البحرية المصرية تستولي على عدد من سفن العدو ومعداته، وتقتل وتأسر بحّارته. وفي التاسع من شهر رجب سنة ٦١٨هـ/ سبتمبر ١٢٢١م دخلت القوات المصرية دمياط التي كان الصليبيون قد حصَّنوها جيدًا **وفشلت الحملة (الخامسة) فى تحقيق أهدافها وتراجع المشروع الصليبى فى المشرق العربى الإسلامى إلى الوراء كثيراً وتقدمت أعمال التحرير خطوات نحو الأمام.**

كانت نتائج الحملة الخامسة مؤلمة لأوربا كلها، وبدا أنهم يريدون الانتقام لما حدث، ويبحثون عن تعويض الهزيمة بنصر سهل. وكان **فردريك الثانى قد تولى عرش الإمبراطورية الرومانية سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م،** وأخذ شارة الصليب في تلك السنة لكي يضمن تأييد البابا إنوسنت الثالث له في عرش الإمبراطورية، بيد أنه كان لا يريد القيام بحملة صليبية؛ لأنه كان يطمح إلى بسط نفوذه على كل إيطاليا بما فيها أملاك البابوية ومدن الشمال التجارية الغنية؛ ولذلك أخذ يماطل في الوفاء بنذره الصليبي بأن يقود حملةً كبيرةً إلى الأراضي المقدسة، **ولكن زواجه من يولاندا ابنة الملك الصليبى الراحل يوحنا بريين ملك عكا، جعل منه ملكًا على بيت المقدس ومسئولاً عن الصليبيين فى الشرق.**

بدأت المراسلات بين فردريك الثانى وبين السلطان الكامل الأيوبى، إذ كانت بينهما صداقة قديمة؛ مما أثار غضب البابا فى روما، ثم أسفرت المراسلات عن قدوم الإمبراطور إلى فلسطين سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م، وكان تحت إمرته جيش صغير قوامه ستمائة فارس فقط، وأسطول هزيل، وقد دعت البابوية إلى شنِّ حملة صليبية ضد فردريك الثانى (اول حملة صليبية ضد اخرى)بعد أن وقعت ضده عقوبة الحرمان، على حين كان الإمبراطور فى فلسطين بحملة صليبية.

كانت أهم نتائج هذه الحملة الصغيرة(مناقشة ٧)، التى تجنبت أي إراقة للدماء، أن عقدت هدنة مدتها عشر سنوات بين الكامل الأيوبي وفردريك الثاني، على أساس أن يتسلم الإمبراطور مدينة القدس، وبيت لحم، وشريطًا من الأرض يصل بين عكا والقدس، ويبقى فى حوزة المسلمين المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمناطق الريفية، وفى المقابل يتعهد فردريك بمنع أي حملة صليبية طوال عشر سنوات من أوربا. وبعد أن تُوِّج فردريك الثاني ملكًا على مملكة بيت المقدس الصليبية عاد في رجب ٦٢٦هـ/ يونيو ١٢٢٩م إلى أوربا بمكاسب لم تستطع أية حملة أخرى قبله أن تحققها منذ الحملة الأولى فى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، مع أنه كان يقود أضعف الحملات .

ويرى البعض أن هذه النتائج لم يكن لها أن تتحقق لولا تنازل الملك الكامل الذي فرَّط في أراضي المسلمين لصديقه الملك الصليبي بدون مقابل؛ وذلك حتى يُحسِّن فردريك وضعه في أوربا. ولا شك أن هذه الأحداث تعكس طبيعة متهاونة للملك الكامل في حقوق المسلمين .

وكان التنازل عن بيت المقدس صدمة مزلزلة للمسلمين، الذين ترحَّموا على صلاح الدين وجنوده المجاهدين الذين بذلوا أرواحهم من أجل تحريره؛ ليأتي ذلك الملك الكامل الأيوبي ليتنازل عنه بسهولة للصليبيين دون أي مقاومة. ومن ثَمَّ كان من أهم آمال المسلمين إعادة تحرير الأقصى مرة أخرى . .....

المحاضرة السابعة

نجم الدين ايوب والحملة السابعة

كان لهزيمة الصليبيين عند غزة في معركة الحربية أو " معركة لافوربي وسقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين سنة ١٢٤٤ م صدى كبير في أوروبا التي أحس ملوكها أن ممالكهم في الشام قد أوشكت على السقوط بالكامل في أيدي المسلمين. فراح الأوروبيون يجهزون لحملة كبيرة للاستيلاء على مصر لإخراجها من الصراع ، حيث **أنهم أدركوا، بعد هزيمة حملتهم الخامسة على مصر، ثم هزيمتهم في معركة الحربية عند غزة ، وضياع بيت المقدس منهم ، أن مصر بإمكانياتها البشرية والاقتصادية هي ترسانة العالم الإسلامي وقلعة التصدي لطموحاتهم في الاستيلاء على بيت المقدس والشرق.**

في تلك الفترة كان يحكم مصر والشام معًا الملك الصالح أيوب ، وكان رجلاً صالحًا من عظماء بني أيوب **تولى الأمر بعد أخيه الكامل محمد فصحح كثيرًا من أخطائه خاصة جنايته العظيمة بالتنازل عن بيت المقدس للملك فريدريك الثاني سنة ٦٢٥هـ، واستطاع الصالح أيوب أن يعيد بيت المقدس للمسلمين سنة ٦٤٢هـ، واسترد دمشق سنة ٦٤٣هـ وعسقلان سنة ٦٤٥هـ، وأعاد للدولة الأيوبية هيبتها ومجدها السابق الذي فرط فيه أخوه الكامل محمد .**

وعندما رأى **الصليبيون** في غرب أوروبا النهج غير التوسعي عند التتار فى الفترة التى شهدت هدؤا نسبيا (٦٣٩هـ - ٦٤٦هـ) **فتجددت آمالهم فى التعاون مع التتار ضد المسلمين، فأرسل البابا "إنوسنت الرابع" سفارة إلى منغوليا فى سنة ٦٤٣هـ، وكان غرض السفارة هو التوحد مع التتار لحرب المسلمين فى مصر والشام.وقد فشلت السفارة الصليبية فى تحقيق أهدافها، لأن المغول كانت لهم طموحاتهم وخططهم الخاصة.**

أراد ملك فرنسا لويس التاسع(قائد الحملة السابعة) أن يستغل فرصة الاجتياح التتري لشرق العالم الإسلامي ، فيقوم هو باجتياح العالم الإسلامي من ناحية مصر والشام، وقد حاول لويس الاستعانة بالتتار آنذاك، ولكن فشلت هذه المحاولة أيضا. ومع ذلك فقد **أصر لويس التاسع على المضى فى حملته. ووقع اختياره على مدينة دمياط المصرية ليبدأ بها حملته لأنها كانت أهم ميناء فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط فى ذلك الزمن، وبذلك بدأت الحملة الصليبية السابعة فى ٦٤٧ هـ . (هام)**

وفى نفس العام ٦٤٧ هجرية كان الصالح أيوب قد مرض مرضاً شديداً ، وأصيب بمرض السل.

والجدير بالذكر أن البابوية لم تكن لى قدر كبير من التشجع لهذه الحملة ، فان الخلافات مع امبراطور المانيا كانت تشغله أكثر من أمور الشرق وتلك الحملة التى حمل لوائها لويس التاسع ملك فرنسا.

كان لويس التاسع ، الذي عرف فيما بعد بالقديس لويس ، من أشد المتحمسين لقيام تلك الحملة ، فراح يروج لها في أنحاء أوروبا ، ولدى بابا الكاثوليك أنوسنت الرابع وأثناء انعقاد مجمع ليون الكنسي الأول عام ١٢٤٥ م **أعلن انوسينت الرابع تأييده ومباركته للحملة التي كان يجهز لها لويس التاسع** ، وأرسل "اودو" كاردينال فراسكاتي للترويج للحملة في أنحاء فرنسا ، **وفرضت ضرائب على الناس لتمويل الحملة ، ووافقت جنوة ومارسيليا على تجهيز السفن اللازمة ، أما فينسيا فقد رفضت المشاركة خوفاً على مصالحها التجارية الواسعة مع مصر.**

نزل الملك لويس التاسع بجيشه إلى دمياط في يوم ٢٠ صفر سنة ٦٤٧هـ، وللأسف الشديد **ظنت الحامية المدافعة عن المدينة أن سلطانهم المريض الملك الصالح أيوب قد مات ، فانسحبوا انسحاباً غير مبرر، ووقعت دمياط في أيدي الصليبيين بسهولة ، وهي المدينة التي كانت قد تصدت قبل ذلك للحملة الصليبية الخامسة وكانت سببا فى هزيمتها وفشلها.**

علم بذلك الملك الصالح فاشتد حزنه ، وعاقب المسئولين عن جريمة سقوط دمياط ، وتوقَّع أن الصليبيين سيتجهون إلى القاهرة عبر النيل لغزو العاصمة المصرية نفسها ، وبذلك يُسقطون الدولة بكاملها .. لذلك فقد قرر بحكمته أن يرتب اللقاء في الطريق بين القاهرة ودمياط .. واختار لذلك مدينة المنصورة لأنها تقع على النيل ، وحتمًا سيستغل الصليبيون النيل للإبحار فيه بسفنهم الكثيرة.

وبالفعل أمر الملك الصالح رحمه الله بأن يحمله الناس إلى مدينة المنصورة الواقعة على فرع النيل الذي يأتي من دمياط ، وذلك لانتظار جيش الصليبيين بها ، والاستعداد لمعركة فاصلة هناك.. وبالفعل حُمل الملك الصالح -رغم مرضه الشديد- إلى المنصورة، وبدأ فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس يضعان الخطة المناسبة للقاء الصليبيين في المنصورة.

وكما توقع الملك الصالح نجم الدين أيوب فقد اتجهت الحملة بعد استيلاءها على دمياط الى إلى داخل مصر -عبر نهر النيل - في اتجاه القاهرة عبر المنصورة ، والتى كان الجيش المصري فى انتظارهم ، وكان معه **سلطان مصر "الصالح أيوب " الذي مات بعد ثلاثة أيام من بداية المعركة في المنصورة ، وتولت أمر مصر السلطانة "شجر الدر " زوجة الصالح أيوب التي أخفت خبر وفاة زوجها.**

وراسلت(شجرة الدر) توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأبلغته بخبر وفاة أبيه ، وأن عليه أن يأتي بسرعة لاستلام مقاليد الحكم في مصر والشام ، ثم اتفقت مع كبير وزراء الملك الصالح وكان اسمه "فخر الدين يوسف " على إدارة الأمور إلى أن يأتي توران شاه ، ثم كلفت فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس بالاستمرار في الإعداد للمعركة الفاصلة في المنصورة ، وهكذا سارت الأمور بصورة طيبة بعد وفاة الملك الصالح ، ولم يحدث الاضطراب المتوقع نتيجة هذه الوفاة المفاجئة .

وفي هذه الظروف الصعبة ومع كل احتياطات شجرة الدرّ إلا أن خبر وفاة الملك الصالح أيوب تسرب إلى الشعب ، بل ووصل إلى الصليبيين ، وهذا أدى إلى ارتفاع حماسة الصليبيين،وانخفاض معنويات الجيش المصري ، وإن ظل ثابتاً في منطقة المنصورة ووضع فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس خطة بارعة لمقابلة الجيش الفرنسي في المنصورة ، وعرضاها على شجرة الدر ، وكانت شجرة الدرّ تمثل الحاكم الفعلي لحين قدوم توران شاه ابن الصالح أيوب..وأقرت شجرة الدرّ الخطة ، وأخذ الجيش المصري مواقعه.

وفي اليوم الرابع من ذي القعدة من سنة ٦٤٧ هجرية دارت موقعة المنصورة العظيمة ، وانتصر فيها المسلمون انتصاراً باهراً.

وتسلم السلطان الشاب مقاليد الحكم ، وأعلن رسمياً وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وولاية توران شاه حكم مصر والشام .. ثم بدأ توران شاه في التخطيط لهجوم جديد على الصليبيين..وكانت حالة الجيش الصليبي قد ساءت ، وبدأ بالانسحاب ناحية دمياط ، بينما ارتفعت معنويات الجيش المصري جداً للانتصارات السابقة ، وخاصة انتصار المنصورة ، ولوصول توران شاه في الوقت المناسب.

وبعد خطة بارعة وضعها توران شاه ابن الصالح أيوب استطاع الجيش المصري أن يلتقي مرة أخرى مع الصليبيين ، عند مدينة "فارسكور"في أوائل المحرم سنة ٦٤٨ هجرية ،

بعد أقل من شهرين من موقعة المنصورة الكبيرة! ودارت هناك معركة هائلة تحطم فيها الجيش الصليبي تماماً ، بل وأسر الملك لويس التاسع نفسه،ووقع جيشه بكامله ما بين قتيل وأسير ، وسيق الملك لويس مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة.

ووضعت شروط قاسية على الملك لويس التاسع ليفتدي نفسه من الأسر ، وكان من ضمنها أن يفتدي نفسه بثمانمائة ألف دينار من الذهب يدفع نصفها حالاً ونصفها مستقبلاً ، على أن يحتفظ توران شاه بالأسرى الصليبيين إلى أن يتم دفع بقية الفدية ، بالإضافة إلى إطلاق سراح الأسرى المسلمين ، وتسليم دمياط للمسلمين ، وهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات.

وقد كان ذلك انتصاراً باهراً بكل المقاييس..وتم بالفعل جمع نصف الفدية بصعوبة ، وأطلق سراح الملك لويس التاسع إلى عكا ، وكانت إمارة صليبية في ذلك الوقت.

ثم حدثت بعض الفتن في مصر ، واتفقت شجرة الدرّ مع فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس وغيرهما من المماليك الصالحية البحرية على قتل "توران شاه "، وبالفعل تمت ذلك في يوم ٢٧ محرم سنة ٦٤٨ هجرية، أي بعد سبعين يوماً فقط من قدومه واعتلائه عرش مصر. (هذين الاسمين هامين)

وقتل توران شاه ، وحدث فراغ سياسي كبير جداً بقتل توران شاه ، فليس هناك أيوبي في مصر مؤهل لقيادة الدولة.

وكان الأيوبيون في الشام مازالوا يطمعون في مصر ، ويطمعون في ضمها إلى الشام.

وقد تولت شجرة الدر ملك مصر علانية ، ولكن الجو العام في مصر لم يكن يقبل بولاية امرأة ، فتزوجت من أحد قادة المماليك وهو "عز الدين أيبك "، ثم أصبح سلطاناً على مصر ، وبذلك انتهى حكم الأيوبيين تماماً في مصر.

.....

المحاضرة الثامنة

دولة المماليك (المماليك البحرية)

أصل المماليك

المماليك خليط من الأتراك والروم والأوربيين والشراكسة ، جلبهم الحكام ليستعينوا بهم في القرن السادس الهجري وحتى منتصف القرن السابع.
كان كل حاكم يتخذ منهم قوة تسانده ، وتدعم الأمن والاستقرار في إمارته أو مملكته ، وممن عمل على جلبهم والاستعانة بهم الأيوبيون ، وبخاصة في عصورهم المتأخرة لما أصابهم الضعف واحتاجوا إلى الرجال. لقد كانوا يُباعون للملوك والأمراء ، ثم يُدَرَّبون على الطاعة والإخلاص والولاء. (مرتزقة)

يرجع ظهور المماليك في العالم الإسلامي إلى عهد الدولة العباسية حيث استقدمهم الخلفاء العباسيون الأوائل ، واعتمدوا عليهم في توطيد دولتهم ، واستعانوا بهم في الجيش والإدارة ، ولعلَّ الخليفة المأمون العباسي (١٩٨-٢١٨هـ= ٨١٣-٨٣٣م) هو أول من استعان بهم ، ثم استكثر منهم الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ= ٨٣٣-٨٤٣م)، وشكّل فرقا عسكرية من الأتراك ، وكان يهتم بشرائهم صغارا ويستجلبهم من سمرقند وفرغانة والسند ، وغيرها من أقاليم ما وراء النهر، حتى بلغ عددهم بضعة عشر ألفا ، فلمّا ضاقت بهم بغداد ، وزاحموا الناس في الطرقات نقلهم المعتصم معه إلى "سامراء " عاصمته الجديدة التي بناها لتكون حاضرة لملكه.

ولم يلبث أن شاع استخدام المماليك في كثير من أجزاء العالم الإسلامي ، وكانت مصر ممن انتهجت هذا النهج ، فأكثر "أحمد بن طولون " الذي تولّى حكم مصر سنة ٢٥٤هـ = ٨٦٨م من شراء المماليك الديالمة ، سكان بحر قزوين حتى بلغ عددهم أكثر من ٢٤ ألفا ، والتزم الإخشيديون سُنة أسلافهم الطولونيين في جلب المماليك الأتراك والاستعانة بهم في الجيش.

ومع مرور الوقت ـ أصبح المماليك هم الأداة العسكرية الرئيسية ـ وأحياناً الوحيدة ـ في كثير من البلاد الإسلامية.

المماليك فى مصر

المماليك البحرية وهم الذين أسكنهم الملك الصالح الأيوبي قلعة في جزيرة الروضة، ونسبوا إلى بحر النيل، أو سمّوا بذلك لأنهم قدموا من وراء البحار.وقد أهتم الصالح أيوب (٦٣٨-٦٤٧هـ = ١٢٤٠ – ١٢٤٩م) منذ أن تولّى حكم مصر بالإكثار من شراء المماليك الأتراك بعد أن ساندوه في توطيد سلطانه ، حتى صار معظم جيشه منهم ، وبنى لهم قلعة خاصة بجزيرة "الروضة " في وسط النيل وأسكنهم بها، وجعلها مقرا لحكمه ، وعُرف هؤلاء المماليك الجدد باسم المماليك "البحرية الصالحية ".

وقد برز هؤلاء المماليك البحرية وتعاظم شأنهم فى خضم أحداث الحملة الصليبية السابعة التي مُنيت بهزيمة بالغة سنة ٦٤٨هـ = ١٢٥٠م، وانتهت بأسر الملك "لويس التاسع" قائد الحملة في المنصورة ، وتبدد قواته بين القتل والأسر.

بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب في أثناء معركة المنصورة وخلفه ابنه توران شاه في حكم مصر، لكنه لم يحسن معاملة المماليك البحرية ، وخشي من نفوذهم ، وهم الذين كان لهم الفضل الأكبر في تحقيق النصر.

يُضاف إلى ذلك سوء تدبيره وفساد سياسته بإبعاده كبار رجال دولته من الأمراء وأهل الحل والعقد ، وتقريبه رجاله وحاشيته وإغداقه عليهم بالأموال والإقطاعات ولم يكن أمام المماليك سوى التخلص من توران شاه قبل أن يتخلص هو منهم ، فنجحوا فى قتله ، وبمقتله انتهت الدولة الأيوبية فى مصر .

وجد المماليك أنفسهم أمام وضع جديد لم يعهدوه من قبل ، فهم اليوم أصحاب الكلمة النافذة والتأثير البالغ ، ولم يعودوا أداة في أيدي من يستخدمهم لمصلحته وتحقيق هدفه ، وعليهم أن يختاروا من بينهم سلطانا جديدا للبلاد ، فاتفقت كلمتهم على اختيار أرملة أستاذهم "شجرة الدر" سلطانة للبلاد ، في سابقة لم تحدث في التاريخ الإسلامي إلا نادرا ، وبايعوها بالسلطنة في (٢ من صفر ٦٤٨هـ = ٥ مايو ١٢٥٠م).

غير أن الظروف لم تكن مواتية لأن تستمر شجرة الدر في الحكم ، على الرغم مما أبدته من مهارة وحزم في إدارة شئون الدولة ، فلقيت معارضة شديدة في داخل البلاد وخارجها ، وثارت ثائرة الأيوبيين في الشام لمقتل توران شاه وجلوس شجرة الدر على سدة الحكم ، ورفضت الخلافة العباسية في بغداد أن تُقر صنيع المماليك ، فكتب الخليفة إليهم : "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نُسيِّر إليكم رجلا ".

لم تجد شجرة الدر بُدا من أن تتنازل عن الحكم للأمير "عز الدين أيبك" أتابك العسكر الذي تزوجته وتلقب بالملك المعز، وكانت المدة التى قضتها شجرة الدر على عرش البلاد ٨٠ يوما ، ولم يكن تولّيها الحكم ناتجا عن موافقة شعبية أو اختيار من الخلافة العباسية ، وإنما كان وليد الظروف التى أحاطت بمصر في ذلك الوقت. وتولى المماليك لأول مرة أمور البلاد وجاؤا على رأس السلطة الحاكمة فى مصر.

تولَّى الملك المعز عرش البلاد ، ولم تهدأ أصوات المعارضين لانفراد المماليك بالحكم ، بل زاد حدة ، وكان على السلطان الجديد للدولة الوليدة أن يواجه بحزم خطر الأيوبيين في الشام وتهديداتهم ، وكانوا قد اجتمعوا تحت زعامة "الناصر يوسف " صاحب حلب ودمشق لاسترداد مصر من المماليك ، باعتبارهم مغتصبين حق الأيوبيين في حكم مصر، وزحفوا على مصر فالتقى معهم أيبك بقواته في معركة بالقرب من الصالحية في (١٠ من ذي القعدة سنة ٦٤٨هـ = ٢ من فبراير ١٢٥١م)، وانتهت بانتصاره وفرار الناصر يوسف ورجاله إلى الشام.

وقد دفع هذا النصر الملك المعز إلى الزحف إلى الشام للقضاء على المعارضة الأيوبية ، غير أن تدخل الخليفة المعتصم العباسي وضع حدًّا للنزاع بين الطرفين ؛ فتم الصلح بينهما سنة ٦٥١هـ = ١٢٥٣م على أن تكون مصر والجزء الجنوبي من فلسطين بما في ذلك غزة وبيت المقدس وبلاد الساحل للمعز أيبك ، على حين تظل البلاد الشامية في أيدى الأيوبيين ، وهكذا انتهت العقبة الأولى في تأسيس الدولة المملوكية الناشئة بإيقاف النزاع والصراع مع ملوك البيت الأيوبى.

ولم يكد السلطان أيبك يتخلص من هذه العقبة حتى واجهته عدة مشكلات داخلية ، بدأت بقيام الأعراب بثورة شعبية في الصعيد والشرقية تحت زعامة "حصن الدين ثعلب "، هددت البلاد ؛ فاضطر السلطان إلى أن يرسل حملة عسكرية بقيادة "فارس الدين أقطاي" لقمع هذه الثورة في مهدها ؛ فنجح في القضاء عليها قبل أن يستفحل خطرها.

أما العقبة الثانية التي واجهت أيبك في الداخل فهي ازدياد نفوذ فارس الدين أقطاي، خاصة بعد نجاحه في تحقيق انتصارات داخلية وخارجية ، فهدد نفوذه مكانة السلطان ، واشتد خطره ، وعجز السلطان عن مواجهته والتصدي لاستخفافه به ؛ فكان "أقطاي" لا يظهر في مكان إلا وحوله رجاله ومماليكه في أبهة عظمية كأنه ملك متوج. استشعر

السلطان(ايبك) الخطر وأحس بالخوف من ازدياد نفوذ "أقطاي"؛ فعزم على التخلص منه فاستدعاه إلى القلعه بحجة استشارته في أمر من أمور الدولة ، وهناك تخلص منه بالقتل في (٣ من شعبان ٦٥٢هـ = ١٨ من سبتمبر ١٢٥٤م).

ودخل أيبك بعد ذلك في صراع مع زوجته شجرة الدر وبدأ يفكر في الخلاص منها ، غير أنها كانت أسبق منه ، فدبرت مؤامرة لقتله في (٢٤ من ربيع الأول ٦٥٥هـ = ١١ من إبريل ١٢٥٧م). وما كاد يمر وقت كبير على اغتيال عز الدين أيبك حتى تم اغتيال شجرة الدر هى الأخرى. ولمّا تعرض الشرق الإسلامي لخطر المغول الذي اجتاح الشام وأصبحت مصر على مقربة من هذا الخطر ، وكانت مصر في ذاك الوقت يحكمها علي بن أيبك الذي كان في الخامسة عشرة ، والذي تولى مصر بعد وفاة أبيه المعز أيبك ، وكان ضعيفًا لا حول له في هذه الظروف الصعبة.

وقد سقطت الخلافة العباسية ، واستولى التتار على بغداد وبقية مدن العراق ، ثم اتجهوا نحو بلاد الشام التي كانت مقسَّمة إلى إمارات يحكمها أمراء أيوبيون ، وتمكن التتار من الاستيلاء على حلب سنة ٦٥٧هـ/١٢٧٧م.

ووصلت إلى مصر صرخات أهل الشام ، واستغاثات أمرائهم من الأيوبيين : أن تحركوا واعملوا على إنقاذنا ، لقد قتلوا العباد ، وخربوا البلاد ، وأسروا النساء والأطفال.

وكانت مصر فى ذلك الوقت هي الأمل بعدما ضاع الأمل في الخلافة ، وفي أمراء الشام.

فقام سيف الدين قطز نائب السلطنة بعزل السلطان الصغير ، وتولى الحكم لمواجهة الخطر المغولى الداهم.

تولى قطز الحكم فى فترة عصيبة حيث كان عليه صد خطر كبير يهدد ليس فقط الأمة الإسلامية بل الحضارة البشرية بأكملها.

.....

المحاضرة التاسعة

سيف الدين قطز والتصدي للمغول

سيف الدين قطز (مناقشة ١٠)

هو محمود بن ممدود ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه الذي تصدى بعد أبيه لهجمات المغول ، وحقق عدة انتصارات عليهم ، واسترد منهم بعض المدن التي استولوا عليها ، لكنه لم يجد عونًا من الدولة العباسية، فتركته يصارعهم دون أن تمد إليه يدًا ، حتى نجحت جحافل المغول سنة (٦٢٨هـ = ١٢٣١م) في القضاء على دولته التي كانت تقع في إقليم كرمان الحالي في جنوبي إيران ، ثم لقي حتفه على يد أحد الأكراد.

وبيع وهو صبى فى سوق الرقيق. ثم أصبح قطز مملوكًا في "دمشق " ضمن مماليك ابن الزعيم ، ثم انتقل إلى القاهرة ، وأصبح من جملة مماليك عز الدين أيبك التركماني ، وترقى عنده حتى صار أكبر مماليكه وأحبهم إليه وأقربهم إلى قلبه بعد أن اظهر إخلاصه وشجاعته.

وبعد زوال الدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين في مصر قامت الدولة المملوكة عام ١٢٥٠ وأصبح الطريق ممهدا لقطز لكي يصل إلى الحكم ، فلم يكد يهنأ الملك المعز بالتخلص من غريمه أيبك ويقبض على بعض المماليك البحرية ويجبر بعضهم على الفرار من مصر ، حتى دب صراع بينه وبين زوجته شجرة الدر ، انتهى بمقتلهما ، وتولى "نور الدين علي بن المعز أيبك" السلطنة .

كان نور الدين علي بن المعز أيبك صبيًا يلهو ولا يصلح لمباشرة الحكم وتحمل المسئولية. وأصبحت مقاليد البلاد في يد "سيف الدين قطز " الذي بدأ نجمه في الظهور ، وقام بنشر الأمن في البلاد والقضاء على المحاولات الفاشلة للأيوبيين لاسترداد مصر من أيدي المماليك ، فزاد ذلك من قوة إحكامه على البلاد.

وبعد زوال الدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين فى مصر قامت الدولة المملوكة عام ١٢٥٠ وكان سيف الدين قطز من أشهر السلاطين فى هذه الدولة وقد تولى قطز السلطة عام ١٢٥٩م بعد خلع السلطان المملوكي الصغير نور الدين على ابن عز الدين أيبك.

المغول والتتار (هام)

المغول قبائل غير متحضرة سكنت وسط أسيا وكانت لا تعرف الأديان السماوية. تلك القبائل المغولية عاشت على حرفة الرعي والتنقل وركوب الخيل وبرعت فى فنون الحرب والقتال، وقد توحد المغول مع التتار تحت زعامة جنكيز خان الذي نجح في تكوين دولة مغولية كبيرة، ذاع صيتها بأنها لا تقهر.

غارات المغول على العالم الاسلامى

زحف المغول من وسط أسيا ينشرون الدمار والهلاك والخراب في الدول الإسلامية وكانوا تحت قيادة هولاكو حفيد جنكيز خان.
استولى المغول على مملكة خوارزم وعلى إيران (بلاد فارس)ثم تقدموا إلى بغداد عاصمة العراق استولوا عليها عام (١٢٥٨م) ونهبوها ودمروها والقوا كتب مكتبتها في نهر دجلة لتعبر عليها الخيل إلى الضفة الأخرى وبذلك قضوا على مظاهر الحضارة الإسلامية في بغداد.

وبعد استيلاء المغول على بغداد استولوا على دمشق عاصمة الشام(سوريا حاليا) ولم يبقى أمام هولاكو إلا مصر. فكانت الأخبار السيئة تتوالى على القاهرة بسقوط بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله ، وتحرك جحافل المغول نحو الشام التي تساقطت مدنها الكبرى في يد هولاكو. كانت هذه الأنباء تزيد القلق في مصر التي كانت تخشى عاقبة مصير الشام.
ووسط هذه الظروف الصعبة التي كان يعيشها العالم الاسلامى كان السلطان سيف الدين قطز قد تولى أمر السلطة فى مصر.

بعد سقوط بلاد الشام في أيدي المغول وحلفائهم عم الرعب والخوف سائر أرجائها ، فهرب الناس باتجاه الأراضي المصرية ، وقد انغرس داخل نفوسهم نتيجة ما شاهدوه من الأهوال وبسبب ما حل بهم وببلادهم من الدمار والخراب والهلاك وأن الشيء الذي سينقذ المسلمين وممتلكاتهم من الزحف المغولي المدمر هو البحث عن قيادة حكيمة قوية تترجم نواياهم تلك بإنهاء خلافاتهم وتوحيد كلمتهم ، وإعادة تنظيم جموعهم ومن ثم بعث روح الجهاد الإسلامي في نفوسهم لدرء ذلك العدوان الذي استشرى خطره وبات يهدد ما تبقى من العالم الإسلامي بالدمار والهلاك .

لم يعد أمام قطز بعد أن ازداد خطر المغول ، وأصبحوا على مقربة من مصر سوى خلع السلطان الصبي ، فانتهز فرصة خروج الأمراء إلى الصيد في منطقة العباسية بالشرقية ،

وقبض على الملك المنصور واعتقله بالقلعة هو وأسرته في (٢٤ من ذي القعدة ٦٥٧هـ = ١٢ من نوفمبر ١٢٥٩م)، وأعلن نفسه سلطانًا ، وبدأ في ترتيب أوضاع السلطنة ، واسترضى كبار الأمراء بأنه لم يقدم على خلع السلطان الصبي إلا لقتال المغول ؛ لأن هذا الأمر لا يصلح بغير سلطان قوي ، ومنّاهم بأن الأمر لهم يختارون من يشاءون بعد تحقيق النصر على العدو ، وبدأ في اختيار أركان دولته وتوطيد دعائم حكمه استعدادًا للقاء المغول.

والحقيقة أن كانت مصر هدفاً استراتيجياً للمغول وذلك لعدة اسباب منها:

١ ـ سياسة التتار التوسعية الواضحة وهم لا ينتهون من بلد إلا ويبحثون عن الذي يليه ، ومصر هي التي تلي فلسطين مباشرة.

٢ ـ لم يبق في العالم الإسلامي بأسره قوة تستطيع أن تهدد أمن التتار إلا مصر ،فقد سقطت معظم الممالك والحصون والمدن الإسلامية تقريباً وبقيت هذه القلعة الصامدة.

٣ ـ الموقع الاستراتيجي لمصر في غاية الاهمية ، فهي في قلب العالم القديم ، ومتحكم في خطوط التجارة العالمية.

٤ ـ احتلال مصر بوابة لشمال أفريقيا وفي ذلك الوقت كان المغرب الكبير ، قد تمزق إلى دويلات صغيرة بعد سقوط دولة الموحدين ، ولم تكن لها القدرة على الوقوف أمام الإمبراطورية المغولية.

٥ ـ القوة البشرية في مصر ، والطاقات الكامنة بها، واستيعابها لفلول المسلمين الهاربين من المغول كان مصدر قلق بالنسبة للمغول.

٦ ـ مقومات حركة الجهاد الناجحة كانت متوفرة في مصر من قيادة واعية ، وحمية دينية ، وتجمع للعلماء والفقهاء الفارين من هول المغول ، فكان المغول يخشون أن تتحول تلك المقومات إلى مشروع إسلامي لتحرير ديار المسلمين من الاحتلال المغولي.

٦ ـ رغبة المغول في الهيمنة على العالم كله تستدعي منهم القضاء على دولة المماليك ، ثم أن القرار باحتلال مصر أخذه إمبراطور المغول في عاصمتهم بحضور كبار مستشاري الإمبراطورية المغولية.

وبالفعل بعد تولى قطز السلطنة بقليل جاء رسل المغول يحملون رسائل التهديد والوعيد ، ولم يكن أمام قطز : إما التسليم -مثلما فعل غيره من حكام الشام - أو النهوض بمسئوليته التاريخية تجاه هذا الخطر الداهم الذي ألقى الفزع والهلع في القلوب.

عين جالوت (مناقشة ١١)

فجمع قطز الأمراء وشاورهم في الأمر فاتفقوا على قتل رسل المغول ؛ قطعًا لتردد البعض في الخروج للقتال ، وإشعارا للعدو بالقوة والتصميم على القتال ، وأمر بأن يخرج الجيش إلى الصالحية ، ونودي في القاهرة وسائر إقليم مصر بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام.

وتوجه قطز إلى رسل هولاكو فقتلهم جميعا وعلَّق رؤسهم على أبواب القاهرة ؛ رغم أن الرسل لا يُقتلون ، ولكنه أراد أن يشعر الناس بقوة وهيبة دولته ، وألا يترك للناس خيارا غير الجهاد. وجاء الخبر بوقوع أمير دمشق في قبضة هولاكو ، وأن جموع التتار استباحت مدن الشام تعيث فيها فسادًا وتهتك الحرمات ، وتنهب الثروات ، فكان لا بد من سرعة التحرك لوقف الزحف المرتقب على مصر.

وفي هذه الأثناء كان الأمير بيبرس البندق داري قد قدم إلى مصر بعد أن طلب الأمان من الملك المظفر قطز ، ووضع نفسه تحت تصرفه في جهاده ضد المغول.

نادى "قطز " في البلاد للخروج لحرب التتار ، فاستجاب له جند من مصر ومن الشام ، واجتمع تحت يديه قرابة الأربعين ألفًا من الجند ، فتقدم بهم إلى منطقة البقاع إلى أرض الشام. فوصل الخبر لأحد قادة التتار بالشام ويسمى "كتبغا نوين"، واستشار من حوله فاختلفوا فمنهم من رأى أن يتمهل حتى يصل إليه مدد من "هولاكو"، ومنهم من رأى أن يسرع بلقائه قبل أن يجتمع حول "قطز " الجند الفارون من الحرب السابقة ؛ فتزيد خطورة الموقف فاستجاب للرأي الأخير .

موقف قطز من الصليبيين

أراد الملك سيف الدين قطز قبل الشروع في مواجهة المغول أن يختبر الصليبيين على ساحل بلاد الشام ، لمعرفة موقفهم من ذلك الصراع الذي أصبح محاذياً لهم ، لتخوفه من انضمام هؤلاء الصليبيين إلى المغول عند نشوب الحرب ، وبناء عليه توجهت سفارة مصرية إلى

عكا تطلب من الصليبين السماح للجيوش الإسلامية باجتياز بلادهم وشراء ما تحتاجه من المؤن ، والواقع أن الصليبيين لم يخفوا مرارتهم وكراهيتهم وحقدهم للمغول بعن أن قام المغول بمهاجمة مدينة صيدا ونهبها ، كما أنه لم تتوافر عندهم الثقة فيهم لما ارتكبوه من المذابح الجماعية.

ومن ناحية أخرى فأن الصليبيين اتصلوا بالحضارة الإسلامية وألفوها ، بل ونتيجة لذلك أبدوا أول الأمر استعدادهم لبذل المساعدة العسكرية للسلطان قطز إلا أن السلطان سيف الدين شكرهم حينما عرضوا عليه أن يسيروا معه وطلب منهم التزام الحياد بأن يكونوا لا له ولا عليه. واستطاع السلطان سيف الدين قطز أن يتحصل على موافقة الصليبيين بالسماح لقواته باجتياز الأراضي الساحلية التي تحت أيديهم ، وجعلته في مأمن من ذلك الجانب ، وتجنب خطر اشتباكه في أكثر من جهة في تلك اللحظات الحرجة.

سار السلطان قطز بجيوشه بعد أن هيأها للجهاد ، وبذل الأرواح في سبيل نصرة الله ؛ فوصل غزة، ثم اتخذ طريق الساحل متجهًا نحو بحيرة طبرية ، والتقى بالمغول ، وكانوا تحت قيادة (كتبغا) في معركة فاصلة في صباح يوم الجمعة الموافق (٢٥ من رمضان ٦٥٨هـ = ٣ من سبتمبر ١٢٦٠) عند عين جالوت من أرض فلسطين بين بيسان ونابلس، وانتصر المسلمون انتصارا هائلاً بعد أن تردد النصر بين الفريقين. وانهزم جيش التتار، وتبعهم أيضًا بيبرس حتى دمشق ، ففروا أمامه وتركوا ما كان في أيديهم من الأسرى المسلمين.

وأعاد هذا الظفر الثقة في نفوس المسلمين بعدما ضاعت بسبب كثرة الهزائم السابقة ، وظن الناس أن المغول قوم لا يُقهرون ، وكانت نقطة تحول في الصراع المغولي الإسلامي ، فلأول مرة منذ وقت طويل يلقى المغول هزيمة ساحقة أوقفت زحفهم ، وأنقذت العالم الإسلامي والحضارة الإنسانية من خطر محقق.

وكان من شأن هذا النصر أن فر المغول من دمشق وبقية بلاد الشام إلى ما وراء نهر الفرات ، ودخل السلطان قطز دمشق في آخر شهر رمضان وأقام بقلعتها ، وفي غضون أسابيع قليلة تمكن من السيطرة على سائر بلاد الشام ، وأقيمت له الخطبة في مساجد المدن الكبرى حتى حلب ومدن الفرات في أعالي بلاد الشام ، وتمكن من إعادة الأمن

والاستقرار إلى ربوع البلاد، وبعد أن اطمأن إلى ما فعل قرر العودة إلى مصر في (٢٦ من شوال ٦٥٨هـ = ٤ من أكتوبر ١٢٦٠م).

واستقر حكم "قطز " في كل من مصر والشام ، وخضع أمراء البيت الأيوبي لسلطان قطز ، ونظم شئون الشام ، وقد كان وعد قائده "بيبرس" بحكم حلب ؛ ولكنه أخلف وعده وأعطاها لآخر.

ومن هنا يبدأ الظاهر بيبرس في الظهور على المسرح السياسي.

.....

المحاضرة العاشرة

الظاهر بيبرس

ولد السلطان المملوكي ركن الدين بيبرس البندق داري (الظاهر بيبرس) على أرجح الأقوال عام ١٢٢١م في منطقة "قيرغيزستان " بوسط آسيا ، أخذ من بلاده وهو صغير وبيع بالشام ، فنشأ وتربى كمملوك حتى اشتراه الأمير علاء الدين البندقداري، ومنه أخذ بيبرس لقب البندقداري، ثم آلت ملكيته للسلطان (الصالح نجم الدين أيوب) فأظهر بيبرس في خدمته همة وشجاعة ميزته بين أقرانه ، فضمه السلطان الصالح إلى قوات الأمير "فارس الدين أقطاي" حتى أصبح من كبار القادة المماليك ، وعندما وصل (لويس التاسع) بحملته الصليبية إلى مصر كان بيبرس من الذين تصدوا له في معركة المنصورة عام ١٢٤٩م، فأسر لويس التاسع وانهارت حملته.

كان شغوفاً بدراسة تاريخ المعارك والحروب وكان يشجع ويحث العسكريين التركيز على هذه الدراسة وبنفس الوقت كان يحب الأساتذة وخبراء الحرب ويميل إليهم ويكرمهم ويهيئ لهم الجو الملائم للتدريس وإعطاء مزيد من المعلومات التاريخية العسكرية وكان يقول : سماع التاريخ أعظم من التجارب ، وحافظ على التدريب العسكري المتواصل ، والاهتمام بكل صغيرة وكبيرة من الأمور المتعلقة بالسياسة والحرب ، وقد تمتع بصفات قيادية فذة ، وكان يأخذ بالحذر والحيطة لكل الأمور.

عقب اغتيال أقطاي وتولي السلطان (عز الدين أيبك) حكم مصر اضطر بيبرس إلى الانتقال إلى الشام ، إذ لم تكن العلاقة بين أيبك وأقطاي على ما يرام ، وبعد أن تولي الأمير (سيف الدين قطز) مقاليد الأمور في مصر قام باستدعاء بيبرس من الشام لمعاونته في إيقاف زحف التتار على الشرق ، فتمكنا معاً من سحق التتار في معركة "عين جالوت "، وعهد قطز إلى بيبرس بمهمة ملاحقة فلول التتار وتشتيتهم، في عام ١٢٦٠م تولى بيبرس حكم مصر عقب مقتل قطز.

صعود بيبرس إلى السلطة

توتر العلاقات بين سيف الدين قطز ، وبين ركن الدين بيبرس ، وتجدد الخلاف القديم ، حيث رفض قطز إعطاؤه ولاية حلب فاعتبر بيبرس ذلك نوع من الإهانة له وتقليل من جهوده

المبذولة في المعركة ضد التتار، وأخذ كل واحد منهم حذره وحيطته ، وبات الغريمان يتربص كل منهما بالآخر، ولكن بيبرس البندقداري بما عرف عنه من جسارة ودهاء بادر إلى العمل ضد السلطان. فعقد العزم على تدبير مؤامرة هو وعدد من رفاقه من الأمراء المماليك من أجل اغتيال قطز، وبالفعل تم اغتيال سيف الدين قطز، وجاء بيبرس من بعده ليتولى مقاليد الحكم في البلاد.

كان صعود **بيبرس** على عرش **سلطنة المماليك** بداية مرحلة مهمة في تاريخ الدولة الناشئة جعلت من هذا الأمير الداهية ، بحنكته السياسية وبراعته العسكرية ، **المؤسس الحقيقي لهذه الدولة** ، فقد كانت السنوات العشر السابقة ، مرحلة سيولة سياسية حكم خلالها خمسة من السلاطين ، ثم اغتيال ثلاثة منهم ، ونجا الاثنان الآخران بسبب صغر سنهما وانعدام خطورتهما ، ولكن **بيبرس استمر يحكم سبعة عشر عاماً.**

ومن ناحية أخرى ، **كانت دولة سلاطين المماليك في السنوات العشر الأولى من عمرها ، تفتقر إلى الشرعية** وتبحث عن الأمن في مواجهة تهديدات الأيوبيين وجاء إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بمثابة الحل السعيد ، لمشكلة الشرعية ، على حين كانت معركة عين جالوت هي الحل ـ النافع ـ لمشكلة الأمن وتهديدات الأيوبيين.

ومن أهم النتائج لصعود بيبرس إلى السلطة بعد اغتيال قطز هو ازدياد اعتماد أمراء المماليك على مماليكهم بحيث يكونون عدتهم في الصراع الذي يمكن أن يحدث في أي وقت ، فقد كان الأمراء الكبار وولاة الأقاليم يمتلكون جيوشاً صغيرة من المماليك تتراوح أعدادها ما بين ثلاثمائة ، وستمائة مملوك ، وربما زادت الأعداد لتصل إلى ثمانمائة مملوك.

موقف المغول من تولى بيبرس (مناقشة١٢)

اعتقد المغول انه بقتل سيف الدين قطز وتولى الظاهر بيبرس السلطة سوف يحدث انقسام داخل دولة المماليك ، ووجدوا في ذلك فرصة سانحة لهم لمحاولة فرض سيطرتهم على بلاد الشام مرة أخرى ، فتجمع المغول الذين كانوا بحران وغيرهما من مدن إقليم الجزيرة ، وانضم إليهم من سلم من معركة عين جالوت ، وساروا حتى قاربوا البيرة التي كانوا قبل ذلك قد هدموا أسوارها وأبراج قلعتها ليهاجموها ، فأرسل والى حلب نجدة لمساعدة البيرة فى صد هذا الهجوم. ولكن هذه القوة الإسلامية لم تستطع الصمود أمام الجموع المغولية.

واتجه المغول الى حلب واستطاع اقتحامها وإخراج من بها من المسلمين إلى قرية شرقي حلب وحاول المسلمون توحيد صفوفهم مرة أخرى للوقوف في وجه المغول وإيقاف زحفهم إلا أن ذلك التجمع لم يجد نفعاً أمام كثافة الجموع المغولية **، واضطر المسلمون الى التراجع. ثم التقى الطرفان فى حمص عام ٦٥٩هـ/ديسمبر ١٢٦٠م حيث دارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس عند قبر خالد بن الوليد انتصر فيها المسلمون رغم قلة عددهم**.

قام بيبرس بالتحالف مع " بركة خان " هذا الزعيم المغولي الذي أعلن إسلامه ووطد علاقته به من أجل أن يأمن جانبه ويتحالف معه ضد مغول هولاكو وأولاده واللذين كانوا يفرضون سيطرتهم على العراق وفارس. وتمكن الملك الظاهر بيبرس من تثبيت نفسه على عرش الدولة المملوكية في مصر والشام ، حيث سارع بإرسال جيش كبير أوكل إليه مهمة طرد المغول من بلاد الشام ، ولما سمع المغول بمقدم ذلك الجيش دخلهم الهلع والخوف فولوا الأدبار هاربين باتجاه الشرق وطهرت بلاد الشام مرة أخرى من نير الاحتلال المغولي.

موقفه (بيبرس)من الخلافة العباسية (مناقشة ١٣)

شهد عصر السلطان بيبرس العديد من الإنجازات والأعمال التي ارتبطت باسمه ، والتي نذكر منها : تأسيسه للدولة المملوكية وقيامه بمحاولة إحياء الخلافة العباسية والتي أصابها الانهيار مع سقوط بغداد في يد هولاكو، فقام بإحضار " أبو العباس أحمد " وجعله خليفة للمسلمين وبايعه على العمل بكتاب الله وسنة نبيه وهكذا أصبح هناك خليفة للمسلمين مرة أخرى ، وعلى الرغم من وجود الخليفة إلا أن السلطة الفعلية كانت في يد بيبرس.

كما عمل بيبرس على مد نفوذه إلى العديد من البلدان حتى وصل إلى الحجاز ، وقضى على أعدائه وأعداء الدولة المملوكية، وقضى على حاكم الكرك الملك "عمر بن العادل الأيوبي" والذي كان يناصب بيبرس العداء فاستولى بيبرس على الكرك وقام بتعيين والي عليها.

وكانت طائفة الباطنية بالشام العديد من القلاع والحصون والقرى وكانوا أشد الناس ضرراً على الإسلام والمسلمين وعونًا للصليبيين والتتار على المسلمين وتخصصوا في اغتيال قادة المسلمين وعلمائهم حتى صار مجرد ذكر اسمهم يثير الرعب في قلوب الناس ، ولم يكن لهؤلاء أن يغيبوا عن حسابات الظاهر بيبرس الذي رأى من قبل مدى فداحة خطورتهم على الأمة المسلمة فشدد الحصار عليهم واقتحم حصونهم عدة مرات وقد استطاع بيبرس أن يحبط

محاولة الباطنية إحياء الدولة العبيدية الرافضية من جديد عندما ظهر رجل بأرض مصر اسمه 'الكوراني' يدعو 'للفاطميين' ويجمع الناس من أجل ذلك فقتله بيبرس وقضى على فتنته.

كان علم الدين سنجر الحلبي نائب السلطنة بدمشق من قبل قطز. وعندما ورد إليه خبر مقتل قطز واعتلاء بيبرس السلطة ، غضب لذلك ورفض الامتثال لطاعة السلطان الجديد ، فدعا لنفسه وتلقب بالملك المجاهد ، وخطب له على المنابر يوم الجمعة ، وسك العملة بأسمه ، كما طلب من صاحب حماه أن يخرج على السلطة الجديدة لكنه رفض. وحاول الظاهر بيبرس أن يسيطر على الأمر ، فاكتفى بالوعيد والتهديد كي ينصاع الحلبي له ، وعندما لم يذعن فرأى بيبرس أنه لا مفر من استعمال القوة ، فجهز جيشاً بقيادة علاء الدين البندقداري، الذي هزم الحلبي ، فهرب ليلاً إلى دمشق متجهاً إلى بعلبك ، وتم اعتقاله هناك.

جهاد بيبرس ضد الصليبيين

وعندما توطدت دعائم سلطة المماليك ، وقويت شوكتهم ، نتيجة الإجراءات التي اتخذها "بيبرس"، رأى هذا السلطان ضرورة متابعة سياسة صلاح الدين الأيوبي وخلفائه في طرد الصليبيين ، وإجلائهم عن البلاد الإسلامية ، ولم يكن ذلك بالأمر السهل ، فقد كان لزامًا عليه أن يجابه ما تبقى من الإمارات الصليبية وهي أنطاكية ، وطرابلس ، والجزء الباقي من مملكة بيت المقدس ، وحتى يحقق هدفه اتبع إستراتيجية سياسية وعسكرية.

وبدأ بالتأكد من تماسك جبهته الداخلية وجهز الجيش من أجل الخروج لتأمين جبهته الخارجية أيضاً فبدأ في شن الغارات على الإمارات الصليبية ، كما عمل على استرداد ما في أيديهم من أراضي. وكانت سياسته فى ذلك قائمة على ضرب هذه الإمارات الواحدة تلو الأخرى ، ولم تنقضِ سنة من السنوات العشر الواقعة بين عامي (٦٥٩- ٦٦٩هـ/ ١٢٦١- ١٢٧١م) دون أن يوجه إليهم حملة صغيرة أو كبيرة ، وكان ينتصر عليهم في كل مرة.

خرج الملك الظاهر بيبرس من مصر عام ٦٦٤ هـ، بعساكره إلى البلاد الساحلية الواقعة تحت سيطرة الصليبيين ، فنزل قيسارية وتمكن من فتحها بعد ستة أيام فهدمها ، ثم سار إلى أرسوف وفتحها في جمادي الآخرة من هذه السنة. وفي هذه السنة خرج الظاهر بيبرس من

مصر متوجهاً إلى طرابلس ، ومنها إلى صفد حيث قتل وجرح العديد من المسلمين ، وتمكن من فتحها في التاسع عشر من شعبان.

وفي سنة ٦٦٥ هـ، توجه الملك الظاهر بيبرس من دمشق إلى الديار المصرية بعد أن تم له الاستيلاء على بلاد سيس(ما وراء النهر) بكاملها ، وعل الكثير من معاقل الفرنج ، وذهب بعد ذلك إلى الكرك . وفي سنة ٦٦٦ ه،توجه الملك الظاهر بيبرس بعساكره إلى بلاد الشام وفتح يافا في شهر رجب، وأخذها من الفرنجة،كما تمكن من فتح أنطاكية بالسيف ، فنزل بيبرس إلى أنطاكية في مستهل شهر رمضان المعظم سنة ٦٦٦ هـ، فخرج أهلها يطلبون الأمان ، وشرطوا شروطاً رفضها بيبرس واستولى على المدينة بعد أن طلب أهلها العفو.

لم يكتفي بيبرس بتأمين حدود البلاد ضد الأعداء بل قام بتوطيد دعائم الملك والقضاء على الثورات التي قامت بالداخل. كما أن له العديد من الانجازات المدنية من ناحية الإصلاح الاقتصادي والنهضة المعمارية.

جاءت وفاة بيبرس في الثامن والعشرين من محرم عام ٦٧٦ هـ - والثاني من مايو ١٢٧٧م ، بعد حياة حافلة قضى حوالي ١٧ عام منها في الحكم ، تولى من بعده أكبر أولاده ناصر الدين الحكم ، إلا أن أولاد بيبرس لم يدم لهم الحكم طويلاً وذلك نظراً لطمع المماليك في الحكم فتم قتل أولاده ، وتولى الحكم أحد أمراء المماليك والذي عرف باسم سيف الدين قلاوون الألفي.

.....

المحاضرة الحادية عشر

أسرة قلاوون وجهادهم ضد الصليبيين

على الرغم من أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ وراثة العرش إلا أن أسرة " قلاوون" شذت عن القاعدة وحكمت مدة من الوقت قاربت على "القرن" ، وقد حكمت هذه الأسرة من (١٢٧٩ – ١٣٨٢ م)، وقد تميزت مدة حكمها بأن شهدت " مصر" و " بلاد الشام" ازدهاراً ملحوظاً اكتملت فيه آثار المعرفة خصوصاً في بلاد الشام ، وبدت البلاد في عهد السلطنة المملوكية متفوقة على سائر البلدان حتى على أوربا ذاتها ، وقد سطع نجم " قلاوون" إبان حكم " الظاهر بيبرس" حيث كان يعتمد عليه بّما يتميز به من كفاءات ، ولأنه كان من أقوى أمراء المماليك .

ولذلك سعى "الظاهر بيبرس" إلى تزويج ابنه " سعيد بركة" من ابنة الأمير " سيف الدين قلاوون" وهي " غازية خاتون " ظناً منه أن " قلاوون" لن يطمع في انتزاع الملك من زوج ابنته .

لكن حين توفي "الظاهر" و اشتدت المعارضة المملوكية ضد " سعيد بركة" و وقف " قلاوون" على الحياد دون تقديم المساعدة لصهره ، ثم ما لبث أن عزل " بركة" وعين أخاه " بدر الدين سلامش" الذي كان في السابعة من عمره ، وعين نفسه " أتابكاً" على السلطان الجديد فكان أن باشر الحكم منذ تلك اللحظة وشيئاً فشيئاً أخذ يؤسس حكم دولة المماليك بمختلف التدابير إلى أن أعلن نفسه سلطاناً(١٢٧٩م) وتلقب بالملك المنصور.

استعمل " قلاوون" حنكته ودبلوماسيته في الحكم ، فقطع الروابط التي يمكن أن يلتقي بها الصليبيون بالمغول.

ثم تقابل مع المغول وانتصر عليهم واستغل هذا النصر لينزل ضربته الثانية بالصليبين حيث هاجم الصليبين و استولى (عام ١٢٨٥ م) على قلعة " المرقب" أقوى الحصون الصليبية في بلاد الشام ، وحين استفحل النزاع بين صليبي الشام ، أرسل (سنة٦٨٦هـ/ ١٢٨٧ م) حملة استولت على اللاذقية وهى أخر بلد كان قد تبقى للصليبين من إمارة "إنطاكية" .

وشاء سوء حظ الصليبين في تلك الظروف أن يموت " بوهيموند السابع " أمير " طرابلس " ، فقام نزاع حول وراثة العرش ، واستنجد فريق من المتنازعين بالسلطان " قلاوون" .

وهنا أسرع السلطان " قلاوون" فأعد العدة و سار إلى " طرابلس "(سنة ١٢٨٩م) وكان جيش " قلاوون " كبير – يزيد عن أربعين ألف فارس و مئة ألف من المشاة – فلم تستطع مقاومة الحصار فاستولى عليها (سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) ثم لم يلبث المسلمون أن استولوا على المراكز التي أخلاها الصليبين قرب " طرابلس"- مثل بيروت وجبلة - فانحصر الوجود الصليبي إثر هذه الحملة، واقتصر على" صور" و"صيدا" و"عكا" .

ثم وقع " قلاوون" هدنة مع البقية الباقية من الصليبين بعد أن غدت " عكا" مركزاً له لمدة عشر سنوات، ثم أنه حين أخذ صليبيو " عكا" يعتدون على ما جاورهم من بلاد المسلمين فأخذ " قلاوون" يعد العدة للقائهم في " عكا " ، وفي ذروة استعداداته لذلك (سنة٦٨٩هـ/ ١٢٩٠ م) توفي السلطان " قلاوون" .

وبعد وفاة المنصور قلاوون خلفه على السلطنة ابنه "الأشرف خليل "، لم يكن "الأشرف خليل " محبوبًا من أمراء المماليك، حتى إن أباه لم يكتب له ولاية العهد، لشدته وصرامته، واستهانته بأمراء المماليك، لكنه كما تذكر المصادر كان بطلاً لا يكل من الحروب ليلاً ونهارًا، ولا يعرف في أبناء الملوك من كان يناظره في العزم والشجاعة والإقدام ".

واستهل "الأشرف" حكمه بالتخلص من بعض رجال الدولة البارزين، الذين كانت لهم السطوة والنفوذ في عهد أبيه، وبإحلال الأمن في جميع ربوع البلاد، وبدأ في الاستعداد لمواصلة الجهاد ضد الصليبيين، وإتمام ما كان أبوه قد بدأه، وهو فتح عكا، وإنهاء الوجود الصليبي.

خرج الأشرف خليل من القاهرة في (صفر ٦٩٠هـ - ١٢٩١م) قاصدًا "عكا"، وأرسل في الوقت نفسه إلى كل ولاته بالشام بإمداده بالجنود والعتاد، ونودي في الجامع الأموي بدمشق بالاستعداد لغزو "عكا" وتطهير الشام نهائيًا من الصليبيين.

وبالفعل خرج ولاة الأشرف بالشام معه وبدأوا في فرض حصارهم على "عكا" في (ربيع الآخر ٦٩٠هـ - ٥ من إبريل ١٢٩١م)، واستمر هذا الحصار ثلاثة وأربعين يومًا، وعجز الصليبيون عن الاستمرار في المقاومة، ودب اليأس في قلوبهم؛ فخارت قواهم، وشق المسلمون طريقهم إلى القلعة، وأجبروا حاميتها على التراجع؛ فدخلوا المدينة التي استسلمت لهم.

انهارت المدينة ووقع عدد كبير من سكانها أسرى في قبضة المماليك، وسقطت في يد الأشرف خليل في (١٧ من جمادى الأولى ٦٩٠هـ - ١٨ مايو ١٢٩١م)، ثم واصل سعيه لإسقاط بقية المعاقل الصليبية في الشام؛ فاسترد مدينة "صور" دون مقاومة، و"صيدا" ودمرت قواته قلعتها ، وفتح "حيفا " دون مقاومة ، و"انطرطوس" في (٥ من شعبان ٦٩٠هـ - ٣ من أغسطس ١٢٩١م)، و"عثليث" في (١٦ من شعبان ٦٩٠هـ). وظلت الجيوش المملوكية تجوب الساحل الشامي بعد جلاء الصليبيين، من أقصاه إلى أقصاه بضعة أشهر تدمر كل ما تعتبره صالحًا لنزول الصليبيين إلى البر مرة أخرى ، وبهذا وضع "الأشرف خليل" نهاية وخاتمة الحروب الصليبية.

ولم تظل مدة حكم الأشرف خليل أكثر من ثلاث سنوات وعدة أشهر، وكانت يد الأمراء المماليك أسرع في التخلص من السلطان، ولم يشفع عندهم جهاده في محاربة الصليبيين؛ فكانت روح الانتقام والتشفي أقوى بأسًا من روح التسامح والمسالمة؛ فدبروا له مؤامرة وهو في رحلة صيد خارج القاهرة، وتمكنوا من قتله في (١٢ من المحرم ٦٩٣هـ - ديسمبر ١٢٩٣م). وساد الاضطراب فترة ليست بالقليلة وتوالى على السلطة عدة أمراء مماليك وتميزت تلك الفترة بكثرة المؤامرات ولم يبرز من الحكام المماليك سوى عدد قليل، ولعل أبرزهم السلطان الناصر محمد الناصر الذى تولى عرشه من جديد للمرة الثالثة في مستهل (شوال ٧٠٩هـ: مارس ١٣١٠م).

وقد شهدت هذه الفترة من حكم السلطان الناصر- والتي استمرت نحو ٣٢ سنة- ازدهارًا كبيرًا في مختلف النواحي، وكانت من أزهي الفترات في تاريخ الدولة المملوكية؛ فقد تمتعت مصر خلالها برخاء واستقرار كبيرين، فضلاً عن اتساع النفوذ الخارجي لسلطان مصر؛ فقد كان هو الذي يعين أشراف "مكة "، وامتدت سلطته إلى "المدينة "، وخطب ملوك اليمن وده، وصار اسمه يذكر في مساجد طرابلس وتونس، وأصبحت له علاقات ودية بالدول المسيحية في قلب أوروبا، كما أرسل مساعداته إلى سلطنة الهند الإسلامية ضد المغول الذين اشتدت إغارتهم على "الهند ".

بعد وفاة الناصر سنة ٧٤١ دخلت دولة المماليك البحرية في طور جديد من نظم الحكم ، وذلك بسبب كثرة عدد السلاطين الذين اعتلوا العرش ، وصغر سنهم ، وبسبب ظهور نفوذ الأتابكة بشكل كبير ، واشتداد التنافس بين الأمراء على السلطة، وجعلهم ألعوبة في أيديهم ، يعزلونه أو يبقونه على العرش حسب مشيئتهم .. وكان مصير أولائك السلاطين الخلع ثم

النفي أو القتل ، وأحياناً يظل بعضهم بقلعة الجبل على أن يمنع من الاتصال بالناس .. وبذلك ضعفت الدولة المملوكية واضطربت أحوالها وكثرت الفتن والقلاقل في ربوعها ثم أخذت أمور البلاد تؤول من سوء إلى سوء إلى أن تولى الحكم المماليك البرجية .

المماليك البرجية

المماليك " الجراكسة البرجية " هم الذين أتى بهم" المنصور قلاوون" وهم من أصول كردية من " كردستان"، والذين تربوا ونشؤا في أبراج القلعة، فأخلصوا لـ " المنصور قلاوون" و أبنائه و أحفاده من بعده وذلك لرعاية " المنصور" لهم ، الذي عمل على تربيتهم بمنأى بعيد عن المماليك الترك البرية ، الذين دبت الفوضى بينهم .

فكان نتيجة السياسة التي اتبعها"المنصور قلاوون" تجاه المماليك البرجية من عطف وتفرقة في المعاملة عن المماليك القدامى الأتراك البحرية، أن دبت العداوة بين المماليك البحرية والمماليك البرجية. إلى أن تسلم أتابك العسكر الأمير " برقوق "(سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م) في عهد السلطان " علاء الدين علي "، وبعد وفاة هذا السلطان أسند عرش السلطنة للأمير " حاجي" أحد أحفاد " الناصر محمد " ، ثم خلع السلطان " حاجي" من عرش السلطنة، فتسلم " برقوق" الحكم وكان ذلك (سنة ١٣٨٢ م) ليبدأ عهد جديد من عهد المماليك عرف بعهد المماليك الجراكسة أو المماليك البرجية .

وقد تميز عصر السلاجقة بعدة أمور أهمها:

١ـ كان كل السلاطين في هذا العصر من أصل جركسي عدا اثنين هما " خشقدم" و" تمربغا" (الثور الحديدي) اللذين كانا من أصل يوناني .

٢ـ كان سلاطين هذا العصر أمراء أكثر من ما هم سلاطين ، ونجاح السلطان في الحكم كان يتوقف على قدرته في ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض .

٣ـ على الرغم من استمرار النزاع بين أمراء المماليك طيلة (مئة و أربع و ثلاثين سنة) ، إلا أنه لم يمكنوا أحد من التدخل في شؤون البلاد أوالإنتقاص من سيادتها وهذا ما جعلهم يقفون وقفة واحدة في وجه " تيمورلنك" في الوقت الذي اهتزت فيه جميع الدول القائمة غرب القارة الآسيوية أمام هجماته .

٤ـ لم يوجد في عهدهم أي أثر لمبدأ وراثة العرش .

ـ السلطان الظاهر برقوق :

تسلم " الظاهر برقوق" الحكم بعد أن ضعفت " أسرة قلاوون" ، فحيكت في السنة الأولى لحكمه مؤامرة لعزله وإحلال الخليفة العباسي محله ،إلاّ أن" برقوق" استطاع القضاء على المؤامرة والتي أدت بالنتيجة إلى عزل الخليفة و تنصيب آخر مكانه.

ثم أنه في (سنة ١٣٨٩ م) قامت ثورة ضده وقف على رأسها "منطاش"(منتاش) أمير " ملطية"، و" يلبغا الناصري " أمير " حلب " ، حيث تمكنا من مهاجمة القاهرة ومن إبعاد " برقوق" عن الحكم و إرجاع " الأشرف شعبان " من (الأسرة القلاوونية) إلى الحكم ، ولكنه في ظل الخلاف الذي قام بين" منطاش" و" يلبغا الناصري " استطاع "برقوق" أن يعود إلى الحكم وبعودته على هذه الصورة بدأ عصر جديد لم تشهده المنطقة ألاّ وهو"عصر الغزو التتاري لبلاد الشام " .

.....

المحاضرة الثانية عشر

سلاطين المماليك البرجية

السلطان الظاهر برقوق(١٣٨٢-١٣٩٩)

يعتبر الأمير برقوق هو المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الجراكسة فقد تزعم المؤامرة التي عصفت بالسلطان الأشرف شعبان ، و بذلك فقد مهد للجركس الوصول إلى الحكم ، لأن برقوق نفسه كان جركسيا .

فبعد وفاة السلطان المنصور علي ، رأى برقوق أنه ليس من الحكمة أن يتعجل إعلان نفسه سلطاناً قبل أن يكسر شوكة المماليك الترك (البحرية) فأقام في السلطنة الأمير حاجي أخو المنصور علي ، وكان عمره ١١ سنة ، وتولى برقوق منصب أتابكا له .

وبذلك أصبح برقوق المتصرف الفعلي في شؤون إدارة البلاد عن طريق:

١- إسناد الوظائف الكبرى إلى أتباعه ومماليكه ، وعمل على عزل كبار المماليك البحرية.

٢- أخذ يتقرب إلى عامة الناس ، ويؤلف قلوبهم عن طريق إلغاء بعض الضرائب وتحسين النقد .

٣- عندما أغار التركمان على حلب سنة ١٣٨١م تمكن برقوق من صدهم وطرد هم . الأمر الذي أظهره في صورة القائد القادر على الدفاع عن الدولة وحمايتها .

استجاب لإلحاح الأمراء ورغبتهم في تنصيبه سلطانا فعليا عليهم بدلا من السلطان الاسمي الصغير فوافق على ذلك وبويع سلطانا على مصر في ١٩رمضان ٧٨٤ هـ (١٦نوفمبر ١٣٨٢م) **ولُقّب بالملك الظاهر سيف الدين برقوق فكان بذلك مؤسس دولة السلطنة الشركسية في مصر (أو المماليك البرجية) بمصر والتي استمرت حتى ١٥١٧م.**

وجرت عدة محاولات لعزله، واستطاع أعداؤه في عام ٧٩١هـ (١٣٩١م) هزيمته، ونفيه وسجنه في قلعة الكرك في الاردن ، لكنه استطاع بمساعدة أصدقائه تحرير نفسه والهرب من سجنه وهزيمة مناوئيه والعودة إلى عرش السلطنة ثانية في عام ٧٩٢ هـ (١٣٩٠م).

نلاحظ اقتران قيام دولة البرجية على يد السلطان برقوق مع ظهور نفوذ هذه الدولة بين الدول التي تاخمت حدودها الشرقية ، فأخذت هذه الدول تخطب ود السلطان برقوق رغبة في التمتع بحمايته وطلب معونته لاسيما حين بدأ التتار يكتسحون وسط آسيا وغربيها .

ولم يتأخر السلطان برقوق في أن يجعل من دولته الشركسية حصناً وملاذاً لجيرانه ، حتى أن أصحاب سنجار وقيصرية وتكريت حين كتبوا سنة ٨٨٥ هجري _ ١٣٨٣م إلى السلطان برقوق برغبتهم في إعلان تبعيتهم له وخطبوا خطبة الجمعة باسم السلطان برقوق ، سارع إلى إعلان موافقته على مطالبهم وكتب لكل منهم تقليداً بنيابة السلطنة في بلده أي أن برقوق وسّع في ملكه منذ البداية ، ووحد الأرض العربية.

حاول السلطان برقوق ترسيخ مبدأ وراثة العرش الذي عرف في بيت قلاوون ولكن هذا المبدأ لم يعترف به الأمراء الشراكسة فيما بعد وفاته. ورغم ذلك خلفه ابنه في ٢٠ يونيه سنة ١٣٩٩ م ولقب بالناصر واستمر في حكمه حتى يناير سنة ١٤١٢ م نُصب خلالها لمدة تسعة وستين يوماً أخوه عبد العزيز. كان الشراكسة شديدي الغيرة على طبقتهم يبتغون أن يحتفظوا بها نقية صافية ، فعهدوا في تعزيز طبقتهم هذه بالعناصر الجديدة إلى عمال مخصوصين لإحضار الشراكسة من بلادهم الأصلية ومعنى هذا أن دولة (المماليك) الثانية اصطبغت بصبغة جديدة هي الصبغة الشركسية.

السلطان فرج بن برقوق

اعتلي فرج السلطة وعمرة ١٠ سنوات ، فانتهز المماليك صغر سنة وبدأت المنافسات والمنازعات بينهم علي السلطة ، الأمر الذي أخاف السلطان منهم فهرب من القلعة سنة ١٤٠٥ ، واختفي في أحد البيوت . لتنتهي بذلك فترة حكمة الأولى .وعندئذ بايع الأمراء أخاه عبد العزيز بالسلطة.

الفترة الثانية من حكم فرج بن برقوق (١٤٠٥ – ١٤١٢):
عندما أحس بعض الأمراء بأن الأمير بيبرس الأتابك علت مكانته بحكم وصايته على المنصور عبد العزيز ، سعوا لعودة فرج إلى العرش . واستمر فرج هذه المرة في الحكم ٧ سنوات. اتسمت بالاضطراب والفوضى وسوء تدبير الحكم ، ذلك أن برقوق عرف بالقسوة والوحشية فأستهل حكمه بقتل أخويه .. ولم تكن هناك شخصية قوية تظهر على المسرح السياسي وتستطيع انتزاع السلطة .

السلطان برسباى

بدأ "برسباي" حياته مثل آلاف المماليك الذين يُجلبون إلى مصر ، ويتلقون تعليما شرعيا وتربية خاصة في فنون الحرب والقتال ، ثم يلتحقون بخدمة السلاطين ، وكبار الأمراء ،

وترتقي بمواهبهم وملكاتهم إلى المناصب القيادية في الدولة ، وقد تسعدهم الأقدار فيصعدون إلى سدة الحكم والسلطنة ، ونجح في اعتلاء عرش السلطنة في (٨ من ربيع الآخر ٨٢٥هـ = ١ من إبريل ١٤٢٢م)، وهو السلطان الثامن في ترتيب سلاطين دولة المماليك الجركسية ، والثاني والثلاثون في الترتيب العام لسلاطين دولة المماليك.

وقد نجح السلطان برسباي في الفترة التي قضاها في الحكم -وهي نحو سبعة عشر عاما - في إشاعة الأمن والاستقرار ، والقضاء على الثورات والفتن ، التي شبت في البلاد ، والضرب على أيدي الخارجين على النظام ، كما فعل مع ثورة طائفة المماليك الأجلاب ، وهم الذين جاءوا إلى مصر كبارًا ، وكانوا قد عاثوا في الأرض فسادًا لتأخر رواتبهم في عامي (٨٣٥هـ = ١٤٣١م)، (٨٣٨هـ = ١٤٣٤م)، وقد مكّنه ذلك الاستقرار الذي نعمت به البلاد من القيام بغزو جزيرة قبرص.

اتخذ القبارصة من جزيرتهم مركزًا للوثوب على الموانئ الإسلامية في شرق البحر المتوسط وتهديد تجارة المسلمين ، فقام "بطرس الأول لوزجنان" ملك قبرص بحملته الصليبية على الإسكندرية في سنة (٧٦٧هـ = ١٣٦٥م)، وأحرق الحوانيت والخانات والفنادق ، ودنس المساجد وعلق القبارصة عليها الصلبان ، واغتصبوا النساء ، وقتلوا الأطفال والشيوخ ، ومكثوا بالمدينة ثلاثة أيام يعيثون فيها فسادا ، ثم غادروها إلى جزيرتهم ، وتكررت مثل هذه الحملة على طرابلس الشام في سنة (٧٩٦هـ = ١٣٩٣م).

وظلت غارات القبارصة لا تنقطع على الموانئ الإسلامية ، ولم تفلح محاولات سلاطين المماليك في دفع هذا الخطر والقضاء عليه.

لم يكن أمام برسباي سوى التحرك لدفع هذا الخطر ، والرد على هذه الإهانات التي يواظب القبارصة على توجيهها لدولة المماليك ، واشتعلت في نفسه نوازع الجهاد ، والشعور بالمسئولية ، فأعد ثلاث حملات لغزو قبرص ، وذلك في ثلاث سنوات متتالية.

وفي عام ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م أرسل الأشرف برسباي حملة استطلاعية إلى جزيرة قبرص ، وقد اتجهت إلى ميناء "ليماسول" كرد فعلٍ على تلك الحملات التي قام بها ملوك تلك الجزيرة على الإسكندرية ودمياط في أثناء اشتداد حملات "تيمورلنك" على بلاد الشام ، فلما تصدعت دولة تيمورلنك بعد وفاته ، قام السلطان الأشرف برسباي بهذا الرد.

وفي العام التالي ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م أرسل حملة ثانية وكانت جهتها في هذه المرة مدينة "فاما غوستا"، وقد أحرزت النصر ، ومكثت أربعة أيام ، ثم اتجهت إلى مدينة "ليماسول "، وتمكنت من فتحها بعد جهد ، ثم رجعت الحملة إلى مصر.

وبعد عام خرجت حملة جديدة سارت نحو "ليماسول" ففتحها، ثم اتجهت نحو الداخل فالتقت بجيش كبير يقوده ملك قبرص "جانوس" بنفسه ، فجرت معركة طاحنة بين الفريقين ، انتصر فيها المسلمون انتصارًا كبيرًا ، وأسروا الملك ، ثم رجعوا إلى مصر والملك معهم أسير. وفي القاهرة فدى الملك نفسه ، ووافق على أن تكون قبرص تابعة لدولة المماليك ، وبقيت بعدها كذلك مدة بقاء الدولة المملوكية ، وبذلك انتهى الأثر الصليبي نهائيًا.

ارتبطت مصر في عهد برسباي بعلاقات ودية مع الدولة العثمانية.

وفي عهد السلطان برسباي تأزمت العلاقات بينه وبين الدولة التيمورية في فارس.

وبعد **أن قضى السلطان برسباي في الحكم نحو سبعة عشر عاما، تُوفي في (ذي الحجة ٨٤١هـ = مايو ١٤٣٧م)، بعد أن ارتبط اسمه بالجهاد ضد الصليبيين ، وأضاف إلى دولته جزيرة قبرص**، وهو ما أضفى على سلطنته رونقًا وشهرة.

السلطان جقمق

السلطان الظاهر جقمق : (١٤٣٨ – ١٤٥٣ م)

أستطاع الأمير جقمق الاستيلاء على العرش فى (١٤٣٧ – ١٤٣٨ م) ، وكان جقمق معتدلا في حكمة ، كما عرف عن جقمق تدينه وورعه فحرم المعاصي وشرب الخمر. وأهم انجازاته فتح جزيرة رودس، ومن أهم الأسباب التي دفعت جقمق لفتح رودس:

١ـ كانت جزيرة رودس مركزاً هاماً للصليبين في شرق البحر المتوسط .

٢ـ تحريض السلطان مراد الثاني العثماني لجقمق على غزو رودس ؛ ليشغل فرسان الإسبتاريه برودس عن الانضمام للحلف المسيحي الكبير الذي هدف لشن حملة صليبية جديدة ضد العثمانيين .

٣ـ رغبة جقمق في أن يحذو حذو برسباي من ناحية ، وحتى يصرف أنظار المماليك عن النزاعات الداخلية ، ويوجه طاقتهم نحو الغزو الخارجي من ناحية ثانية .

حملات جقمق على رودس :

الحملة الأولى سنة ١٤٤٠م : كانت صغيرة ولم تؤتي نتائجها ، وكانت استطلاعية بالدرجة الأولى .
الحملة الثانية سنة ١٤٤٣ م : كانت بقيادة الأمير إنيال العلائي ، وحققت بعض النجاحات بضم بعضاً من قلاع رودس ، إلا أن عواصف الشتاء اضطرتها للعودة أدراجها .

الحملة الثالثة سنة ١٤٤٤ م : وكانت هي أكبر الحملات وأوفرها عدة وعتاد ، وقد واجهتها بعض الصعاب متمثلة في : شدة مقاومة الإسبيتارية ، فضلا عن مساعدات الغرب المسيحي للجنود في رودس ، وهكذا رأى قائدا الحملة الأمير إنال العلائي وطمان باي إنهائها بالصلح ، بعد أن تعهد الإسبتاريه بعدم التعرض للمسلمين أو الإضرار بتجارتهم .

مات جقمق سنة ١٤٥٣ م ، بعد أن بلغ الثمانين عاماً ، وكان أثناء مرضه قد عهد بالحكم من بعده لإبنه عثمان ، وأعقب وفاة جقمق تولى العهد مجموعة من السلاطين الضعاف .

السلطان قايتباى

ولد الأشرف أبو النصر قايتباي بالقفجاق على نهر فولجا في روسيا الحالية ، واشتراه تاجر يدعى محمود ابن رستم . وجيء به إلى مصر في عام ٨٣٩هـ (١٤٣٥م) وهو في الثالثة عشرة من عمره ، واشتراه السلطان برسباي لحاميته بالقلعة. وأعتق في عهد السلطان جقمق، وعين في منصب جمدار، ثم في منصب خاصكي، ثم في منصب الدودار. ثم ارتقى صفوف الجيش ، ليصبح قائدا للجيوش عام ٨٧٢هـ (١٤٦٧م). وحدث في ذلك العام هياج بين أمراء المماليك نتج عنه عزل السلطان الظاهر تمربغا من السلطة. وقام الخليفة العباسي المستنجد بالله بمبايعة قايتباي سلطانا. وهكذا أصبح قايتباي سلطانا على مصر والشام ، وحكم إلى أن توفي عام ٩٠١هـ (١٤٩٦م).

وقد أثبت " قايتباي"خلال مدة حكمه الطويلة التي بلغت (٢٩ سنة) أنه من أقدر السلاطين المماليك في ميادين القتال والشجاعة و أوسعهم خبرة في شؤون العالم الخارجي . فعلى الرغم من ثورات المماليك التي قامت في عهده استطاع أن يجابهها. لكن **أهم ما يميز عهده هو علاقته بالتركمان في التخوم الشمالية لبلاد الشام .**

فقد أعد " قايتباي" حملة (٨٧٦-٨٧٧هـ/ ١٤٧٢ م) وضع على رأسها الأمير " يشبك الدوادار" لمواجهة تركمان إمارة" ذي القادر" أو" ذي الغادر"، والذي تمكن إنزال الهزيمة بـه والاستيلاء على قلعة " عينتاب" و" أذنه" و"طرسوس".

وأخيراً تم القبض على" شاه سوار" تركمان إمارة" ذي القادر وأرسل إلى القاهرة وأمر السلطان " قايتباي" بشنق " شاه سوار" على باب " زويلة" ، في حين أخذ الأمير " يشبك الدوادار" يعمل على تنظيم شؤون هذه الإمارة ثم رجع إلى مصر .

ثم قام حسن الطويل أوزون" زعيم " آق قيون لو" (قبيلة الشاة البيضاء) بمهاجمة حلب ، فجرد السلطان حملة أخرى بقيادة " يشبك الدوادار"(سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م) اصطدمت بجيش"آق قيون لو"عند منطقة" البيرة" على نهر الفرات وانتصرت عليه .

ساءت أحوال البلاد في أواخر عصر السلطان قايتباي بسبب كثرة الأعباء المالية وانتشار مرض الطاعون بدولة المماليك كلها سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م ووفاة السلطان قايتباي سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م ، ثم بدأ أمراء المماليك التنازع على الحكم وقتل بعضهم البعض .

ـ ثم حدث بعد ذلك أن واجهت مصر أكبر عقبتين لها: الأولى اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧م ثم تمكن " فاسكو دي جاما " من الوصول إلى الهند عن طريق الطواف حول أفريقيا سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م وبذلك تحول طريق التجارة العالمي من البحر الأحمر ومصر. فلم تعد مصر محل الوساطة التجارية بين الشرق والغرب وبذلك فقدت سلطنة المماليك المورد الرئيسي لثروتها.

السلطان قنصوة الغورى

تعاقب على عرش السلطنة بعد وفاة الأشرف قايتباي مجموعة من السلاطين الضعاف حكموا مدداً قصيرة مما يشهد على مدى حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي شهدتها البلاد في ذلك الدور الأخير من حياة الدولة المملوكية . وليس أدل على هذه الحالة من الفوضى من أن معظم السلاطين الذين تولو خلال تلك الفترة كانت نهايتهم القتل أو السجن أو النفي

ولعل أبرز هؤلاء هو السلطان قنصوة الغورى الذى ازدادت فى عهده أطماع العثمانيين الذين التقى معهم فى موقعة مرج دابق.

وأبدى المماليك في هذه المعركة ضروبا من الشجاعة والبسالة ، وقاموا بهجوم خاطف زلزل أقدام العثمانيين ، وأنزل بهم خسائر فادحة ، حتى فكّر سليم الأول في التقهقر ، وطلب الأمان ، غير أن هذا النجاح في القتال لم يدم طويلا فسرعان ما دب الخلاف بين فرق المماليك المحاربة ، وانحاز بعضها إلى الجيش العثماني ، وسرت إشاعة في جيش المماليك أن الغوري سقط قتيلا ، فخارت عزائم المماليك ووهنت قواتهم. وتحقق للعثمانيين النصر الذي كان بداية لأن يستكمل سليم الأول (السلطان العثماني) فتوحاته في الشام وأن يستولي على مدنه واحدة بعد أخرى ، بعدها سلَّم معظمها له بالأمان دون قتال.

طومان باى

اتفقت كلمة الأمراء في مصر على اختيار "طومان باي" للسلطنة ، فأخذ يستعد لمقاومة العثمانيين وعزم للخروج لقتالهم ولا ينتظر مجيئهم ، ولكنه اصطدم بتخاذل المماليك ، واستهانتهم بخطورة الموقف ، وعدم تقديرهم للمسئولية في الوقت الذي أرسل فيه السلطان سليم الأول رسالة إلى طومان باي يعرض عليه الصلح ويبقيه على حكم مصر في مقابل أن يقر بتبعيته للدولة العثمانية ، غير أن هذه المساعي السلمية لم تكلل بالنجاح. واضطر طومان باي إلى مواصلة الاستعداد للقتال ، فخرج إلى "الريدانية" التي التقى فيها بالجيش العثماني.

وأثناء تحصن طومان باى بالريدانية علم بتوغل العثمانيين في البلاد المصرية فحاول جاهدا أن يقنع أمراءه بمباغتة العثمانيين عند الصالحية ، وهم في حالة تعب وإعياء بعد عبورهم الصحراء ، لكنهم رفضوا ، معتقدين أن الخندق الذي حفروه بالريدانية كفيل بحمايتهم ودفع الخطر عنهم .

والتحم الفريقان في معركة هائلة في (٢٩ من ذي الحجة ٩٢٢هـ = ٢٣ من يناير ١٥١٧م)، وأبلى طومان باي في المعركة بلاء حسنا ، وقتل "سنان باشا الخادم " الصدر الأعظم بيده ، وكثر القتلى بين الفريقين ، ولكن العثمانيين استطاعوا هزيمة المماليك هزيمة ساحقة فى النهاية ، وانسحب طومان باي ومن بقي معه إلى نواحي الفسطاط ، ودخلت طلائع الجيش العثماني مدينة القاهرة ، وأخذوا يتعقبون جنود المماليك في كل مكان.

وسقوط الدولة المملوكية

دخل سليم الأول مدينة القاهرة في موكب حافل ، يتقدمه الخليفة العباسي والقضاة بعد الانتصار على المماليك فى الريدانية.

حاول طومان باى استعادة زمام الأمور وقام بثورة ضد معسكر السلطان سليم فى مصر ، وظل طومان باي يعمل على المقاومة بما تيسر له من وسائل ، واجتمع حوله كثير من الجنود وأبناء الصعيد ولكنه لم يستطع الاستمرار فأرسل إلى سليم الأول يفاوضه في الصلح ، فاستجاب له السلطان العثماني. لكن وفد السلطان الذي كان يحمل الموافقة على الصلح تعرض لهجوم من بعض المماليك وقتل بعض رجاله.
لم يجد السلطان العثماني سليم الأول مفر من قتال طومان باي بنفسه،بعد مقتل وفده على يد المماليك ، والتقى الجيشان قرب قرية "الوردان" بالجيزة في (٩ من ربيع الأول ٩٢٣ هـ =١ من إبريل ١٥١٧م)؛ حيث دارت معركة حامية استمرت يومين وانتهت بهزيمة طومان باي وفراره إلى البحيرة.
وتم القبض على طومان باى وإعدامه على باب زويله. وبموته انتهت دولة المماليك وسقطت الخلافة العباسية، وأصبحت مصر ولاية عثمانية.

.....

المحاضرة الثالثة عشر

أصل الأيوبيين

- **شكَّلت الدولة الأيوبية مرحلة مهمة في التاريخ الإسلامي ، واضطلعت بمهام عظيمة وجسيمة في حياة الأمة ؛ وكان أمراؤها على قدر المسئولية حينًا، وعلى غير ذلك أحيانًا أخرى.**
- **واختلف المؤرخون في تحديد أصل الأيوبيين فقيل أنهم كرد من الأكراد من أذربيجان وقيل أنهم عرب. وقيل أنهم أكراد مستعربون حيث انه من الثابت أن لغتهم كانت العربية وذكر الحسن بن داود الأيوبي في كتابه "الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية " ما قيل عن نسب أجداده وقطع أنهم ليسوا أكرادًا ، بل نزلوا عندهم فنسبوا إليهم. وقال : "ولم أرَ أحداً ممن أدركتُه من مشايخ بيتنا يعترف بهذا النسب ".**(الارجح عرب)

نتائج الأوضاع السيئة فى المشرق الاسلامى

نتج عن هذا الوضع المضطرب مناخ مناسب للأمراء المحليين في إقليم الجزيرة وبلاد الشام ، فاستقل كُلٌّ بما تحت يده يعالج مشكلاته وشئونه الخاصة ، وخضع للجانب الذي ارتبطت به مصلحته ، وراح يعمل على توسيع أملاكه - إلى ما وراء حدود إمارته - على حساب جيرانه الأمراء الآخرين في ظل ضعف الرابطة السياسية بين هذه الكيانات ؛ فتوزعت السلطة نتيجة ذلك بين عدد من الأمراء الطامحين ، وتركزت إماراتهم في الموصل ، وأنطاكية ، والرُّها، وحلب ودمشق ، وبيت المقدس وغيرها ، فأصبح لكل واحدة من هذه الوحدات السياسية – الاجتماعية ، كيانها الخاص وذاتيتها المتميزة إلى حد كبير..

نجح عماد الدين زنكى في تحقيق أهم إنجازاته التي بدأ بها صفحة جديدة في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين في المنطقة ، وهي **استعادته إمارة الرها من أيدي الصليبيين**.
وكان لهذا النصر أهميته حيث أثبت قدرة المسلمين على مجابهة الخطر الصليبي ، بالإضافة إلى أنه أمَّنَ حرية الاتصال بين الموصل وحلب .

ثم برز نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي كشخصية فذة ؛ بدأ من حيث انتهى والده ، وبذل جهدًا مضنيًا في سبيل إثارة الأمة ، وبَعْثِ رُوح الجهاد والتضحية بين جميع أفرادها في مناطق الشرق الإسلامي

فشل **الحملة الصليبية الثانية** على الشام بزعامة لويس السابع وكونراد الثالث فى عهد نور الدين. ونجح المسلمون بقيادته في تحقيق النصر وأبادوا الصليبيين عن آخرهم فى **أنطاكية** واستولوا عليها.

نجاح نور الدين في تحقيق المرحلة الأولى من توحيد الجبهة الإسلامية ، بسيطرته على العراق والشام .

نجح صلاح الدين الأيوبي في مصر فى إقامة الأمن واستتباب الأمور وتثبيت أقدامه في البلاد ، وجاءت الفرصة المناسبة لإسقاط دولة الفاطميين ؛ فقطع الدعاء للخليفة الفاطمي ودعا للخليفة العباسي في أول جمعة من سنة (٥٦٧هـ = سبتمبر ١١٧١م).

وبنجاح نور الدين في ضم مصر إلى جبهة الكفاح يكون قد حقق الحلقة الأخيرة من حلقات توحيد الجبهة الإسلامية تمهيدا للضربة القاضية.

و **أستكمل صلاح الدين انتزاع الخلافه من الفاطميين** الذين كانت دولتهم في أفول ، فنجح في عرقلة هجوم الصليبيين سنة ١١٦٩ بعد موت شيركوه، كما فرض نفسه كوزير للعاضد ، الخليفة الفاطمي العاجز ، فكان صلاح الدين هو الحاكم الفعلي لمصر.

صلاح الدين وتوحيد الجبهة الإسلامية

- إنهاء الحكم الفاطمي
- ضم بلاد الشام
- ثم أخذ صلاح الدين ينفذ سياسته ، في إعادة بناء الجبهة الإسلامية المتحدة بحيث تمتد من شمالي العراق إلى بلاد الشام فمصر ؛ ليتمكن -بعد ذلك - من البدء في حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، والمسلمون أشد ما يكونون قوةً وتماسكًا ، ثم تابع تقدمه باتجاه الشمال.

العلاقة مع الصليبيين :

لقد مَرَّتِ العلاقات الأيوبية – الصليبية في عهد صلاح الدين بمرحلتين كبيرتين ، امتدت المرحلة الأولى من عام (٥٧٠هـ= ١١٧٤م) إلى عام (٥٨٢هـ= ١١٨٦م). وفي هذه المرحلة لم يكن صلاح الدين متفرغًا لجهاد الصليبيين ؛ إذ ليس من المعقول أن يوجه اهتمامه الكامل

للجهاد ضدهم ، وخلفه مجموعة من الأمراء المسلمين الذين يُشَكِّلُون تهديدًا محتملاً في الشمال والشرق ؛ لذلك وَجَّهَ اهتمامه وجهوده نحو توحيد الجبهة الإسلامية.

وامتدت المرحلة الثانية من عام (٥٨٢هـ= ١١٨٦م) إلى عام (٥٨٨هـ= ١١٩٢م. وشهدت المواجهات الحاسمة بين الفريقين.

موقعة حطين وتحرير القدس : وقد سبقت موقعة حطين عدة معارك عسكرية كانت تهدف إلى توحيد المسلمين ، وكان للتوحيد أساليب بالإقناع واللين حيناً أو باستعمال القوة حيناً آخر.

لم تكن هزيمة الصليبين في حطين هزيمة طبيعية ، وإنما كانت كارثة حلت بهم ؛ حيث فقدوا زهرة فرسانهم ، وقُتلت منهم أعداد هائلة ، ووقع في الأسر مثلها ، حتى قيل : إن من شاهد القتلى قال : ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال : ما هناك قتيل.

وغدت فلسطين عقب حطين في متناول قبضة صلاح الدين ، فشرع يفتح البلاد والمدن والثغور الصليبية واحدة بعد الأخرى ، ولم يبقى أمامه سوى التوجه لفتح بيت المقدس.

وتم تحرير بيت المقدس.

نتائج انتصارات صلاح الدين:

ما كاد القتال ينتهي في حطين ، وتتحقق خسارة الصليبيين ، حتى أسرعت الرسل إلى غرب أوربا لإعلام ملوكها وأمرائها بما آلت إليه أوضاع الصليبيين في الشرق ، ولم يلبث أن اقتفى أثرهم رسلٌ آخرون عقب فتح بيت المقدس.

والواقع أن تلك الخسارة وهذا الفتح أحدثا ردَّ فعل عنيف في المجتمع الغربي الذي دُعِرَ لنبأ الكارثتين، واعتقد النصارى في الغرب أنهما جاءتا نتيجة إهمالهم في الاستجابة للاستغاثات المتكررة التي جاءت من مملكة بيت المقدس في السنوات الأخيرة .

- **الحملة الصليبية الثالثة** : بقيادة ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد ، وملك فرنسا فيليب أغسطس، والإمبراطور الألماني (فريدريك بربروسا).

- غير أنَّ غرق الإمبراطور الألماني أدَّى لاختلال نظام جيشه.
- فشل صلاح الدين فى الاستيلاء على عكا.
- توقيع صلح الرملة فى ٢٢ من شعبان ٥٨٨ هـ ٢ سبتمبر ١١٩٢ م والذى نص على :
- يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور شمالاً إلى يافا جنوبًا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف.
- تكون عسقلان بأيدي المسلمين.
- يتقاسم المسلمون والصليبيون اللد والرملة مناصفةً.
- يحق للنصارى زيارة بيت المقدس بحرية.
- للمسلمين والنصارى الحق في أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الفريق الآخر.
- مدة المعاهدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

وفاة صلاح الدين:

- وقد أخذت الجبهة الإسلامية في التداعي بعد وفاة صلاح الدين عام (٥٨٩هـ= ١١٩٣م)، ولم تلبث أن نشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبي.
- مَرَّتْ الدولة الأيوبية خلال تلك الفترة بعدة تطورات سريعة انتهت بتوحيدها مرة أخرى تحت زعامة **العادل** أخي صلاح الدين بعد صراعات طويلة بين أبناء صلاح الدين فيما بينهم، وأعاد العادل توحيد الدولة الأيوبية تحت سلطانه.

الحملة الصليبية الرابعة

دعا البابا (أنوسنت الثالث) إلى حرب صليبية ضمن خطة وضعها للكنيسة على رأسها مشروع محو آثار حروب صلاح الدين في الشرق واغتصاب بيت المقدس من المسلمين .

وقد اتجهت جموع الصليبيين إلى القسطنطينية واستولت عليها عام ٦٠٠ هـ ، وقاموا بتخريبها والعدوان على أهلها حتى تمنى بعض البيزنطيين أن لو كانت القسطنطينية قد وقعت في أيدي المسلمين.

واستولت الكنيسة الكاثوليكية على الكنيسة الأرثوذكسية ورأسها أول كاثوليكي منذ إنشائها .

الحملة الصليبية الخامسة

عمقت هذه الحملة الرابعة الخلاف بين مسيحيي الشرق ومسيحيي الغرب ، وجعلت الطريق البري إلى الشام أشد وعورة وأعظم خطراً.

العوامل المباشرة للحملة الخامسة :
-اقتناع الأوربيين بضرورة ضرب مصر لتأمين ممتلكاتهم في الشام.
-توحيد العادل للقوى الإسلامية في مصر والشام .
-استعادة بيت المقدس.

- بعد وفاة الملك العادل وتولى الكامل انتهت الحملة الخامسة بانتصار المسلمون في المنصورة حيث أغرقهم الكامل بمياه الفيضان عندما أمر بفتح الترع المليئة بالمياه فأحاطت بالصليبين و أعاقت تحركهم فطلبوا الصلح مقابل الجلاء عن دمياط. و رحب الكامل بهذا الطلب فجلا الصليبيون عن دمياط سنة٦١٨هـ/٧سبتمبر ١٢٢١.

وفشلت الحملة في تحقيق أهدافها وتراجع المشروع الصليبى في المشرق العربي الإسلامي إلى الوراء كثيراً وتقدمت أعمال التحرير خطوات نحو الأمام .

الحملة السادسة:

بدأت المراسلات بين **فردريك** الثاني وبين السلطان **الكامل** الأيوبي ، إذ كانت بينهما **صداقة** قديمة.

كانت أهم نتائج هذه الحملة الصغيرة ، التي تجنبت أي إراقة للدماء ، أن عقدت هدنة مدتها عشر سنوات بين الكامل الأيوبي وفردريك الثاني ، على أساس أن يتسلم الإمبراطور مدينة القدس ، وبيت لحم، وشريطًا من الأرض يصل بين عكا والقدس ، ويبقى في حوزة المسلمين المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمناطق الريفية ، وفي المقابل يتعهد فردريك بمنع أي حملة صليبية طوال عشر سنوات من أوربا.

ويرى البعض أن هذه النتائج لم يكن لها أن تتحقق لولا تنازل الملك الكامل الذي فرَّط في أراضي المسلمين لصديقه الملك الصليبي بدون مقابل ؛ وذلك حتى يُحسِّن فردريك وضعه في أوربا. ولا شك أن هذه الأحداث تعكس طبيعة متهاونة للملك الكامل في حقوق المسلمين .

وكان التنازل عن بيت المقدس صدمة مزلزلة للمسلمين ، الذين ترحَّموا على صلاح الدين وجنوده المجاهدين الذين بذلوا أرواحهم من أجل تحريره ؛ ليأتي ذلك الملك الكامل الأيوبي ليتنازل عنه بسهولة للصليبيين دون أي مقاومة. ومن ثَمَّ كان من أهم آمال المسلمين إعادة تحرير الأقصى مرة أخرى .

.....

المحاضرة الرابعة عشر

- **نجم الدين أيوب والحملة السابعة :**

- في تلك الفترة كان يحكم مصر والشام معًا الملك الصالح نجم الدين أيوب.

- **تجدد أمل الصليبيين فى التعاون مع التتار .**

- أراد ملك فرنسا لويس التاسع أن يستغل فرصة الاجتياح التتري لشرق العالم الإسلامي ، فيقوم هو باجتياح العالم الإسلامي من ناحية مصر والشام ، وقد حاول لويس الاستعانة بالتتار آنذاك.

- لويس التاسع وأنو سنت الرابع

- وفاة نجم الدين أيوب

- تولى شجرة الدر

- ظهور الأمراء المماليك (فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس).

- تولى توران شاه

- موقعة المنصورة وأسر لويس التاسع

قيام دولة المماليك:

- بدايات المماليك والخلافة العباسية.

- ومع مرور الوقت ـ أصبح المماليك هم الأداة العسكرية الرئيسية ـ وأحياناً الوحيدة ـ في كثير من البلاد الإسلامية.

- المماليك البحرية.

- سوء العلاقة بين أمراء المماليك وتوران شاه.

- مقتل توران شاه.

- شجرة الدر وانتقال السلطة الى عز الدين أيبك.

- المعارضة الأيوبية
- ازدياد نفوذ فارس الدين أقطاي ثم قتله
- التخلص من شجرة الدر
- سيف الدين قطز نائب السلطنة يعزل السلطان الصغير ، وتولى الحكم لمواجهة الخطر المغولي الداهم.
- سيف الدين قطز والتصدي للمغول
- وبعد زوال الدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين فى مصر قامت الدولة المملوكة عام ١٢٥٠
- غارات المغول على العالم الإسلامى

والحقيقة أن كانت مصر هدفاً استراتيجياً للمغول وذلك لعدة اسباب منها:

١ ـ سياسة التتار التوسعية الواضحة وهم لا ينتهون من بلد إلا ويبحثون عن الذي يليه ، ومصر هي التي تلي فلسطين مباشرة.

٢ ـ لم يبق في العالم الإسلامي بأسره قوة تستطيع أن تهدد أمن التتار إلا مصر،فقد سقطت معظم الممالك والحصون والمدن الإسلامية تقريباً وبقيت هذه القلعة الصامدة.

٣ ـ الموقع الاستراتيجي لمصر في غاية الاهمية ، فهي في قلب العالم القديم ، ومتحكم في خطوط التجارة العالمية.

٤ ـ احتلال مصر بوابة لشمال أفريقيا وفي ذلك الوقت كان المغرب الكبير ، قد تمزق إلى دويلات صغيرة بعد سقوط دولة الموحدين ، ولم تكن لها القدرة على الوقوف أمام الإمبراطورية المغولية.

٥ ـ القوة البشرية في مصر ، والطاقات الكامنة بها، واستيعابها لفلول المسلمين الهاربين من المغول كان مصدر قلق بالنسبة للمغول.

٦ ـ مقومات حركة الجهاد الناجحة كانت متوفرة في مصر من قيادة واعية ، وحمية دينية ، وتجمع للعلماء والفقهاء الفارين من هول المغول ، فكان المغول يخشون أن تتحول تلك المقومات إلى مشروع إسلامي لتحرير ديار المسلمين من الاحتلال المغولي.

- عين جالوت
- توجه قطز إلى رسل هولاكو بقتلهم جميعا
- موقف قطز تجاه الصليبيين
- انتصار المسلمين

وكان من شأن هذا النصر أن فر المغول من دمشق وبقية بلاد الشام إلى ما وراء نهر الفرات ، ودخل السلطان قطز دمشق في آخر شهر رمضان وأقام بقلعتها ، وفي غضون أسابيع قليلة تمكن من السيطرة على سائر بلاد الشام ، وأقيمت له الخطبة في مساجد المدن الكبرى حتى حلب ومدن الفرات في أعالي بلاد الشام

- الظاهر بيبرس وشخصيته.
- توتر العلاقات بين سيف الدين قطز، وبين ركن الدين بيبرس.
- تولى بيبرس حكم مصر عقب مقتل قطز.
- موقف المغول من تولى بيبرس. فتجمع المغول الذين كانوا بحران وغيرهما من مدن إقليم الجزيرة ، وانضم إليهم من سلم من معركة عين جالوت ، وساروا حتى قاربوا البيرة التي كانوا قبل ذلك قد هدموا أسوارها وأبراج قلعتها وهاجموا الكثير من المدن فى الشام. شهد عصر السلطان بيبرس العديد من الإنجازات.
- جهاد بيبرس ضد الصليبيين. إتباع سياسة صلاح الدين الأيوبي وخلفائه في طرد الصليبيين مما تبقى من الإمارات الصليبية وهي أنطاكية ، وطرابلس ، والجزء الباقي من مملكة بيت المقدس.
- استعاد بيبرس قيسارية و أرسوف وطرابلس و دمشق ثم بلاد الشام وفتح يافا
- وفاة بيبرس.

- أسرة قلاوون وجهادهم ضد الصليبيين

على الرغم من أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ وراثة العرش إلا أن أسرة " قلاوون" شذت عن القاعدة وحكمت مدة من الوقت قاربت على "القرن" ، وقد حكمت هذه الأسرة من (١٢٧٩ – ١٣٨٢ م)، وقد تميزت مدة حكمها بأن شهدت " مصر " و " بلاد الشام " ازدهاراً ملحوظاً اكتملت فيه آثار المعرفة خصوصاً في بلاد الشام.

استعمل " قلاوون" حنكته ودبلوماسيته في الحكم ، فقطع الروابط التي يمكن أن يلتقي بها الصليبيون بالمغول.

تقابل مع المغول وانتصر عليهم واستغل هذا النصر لينزل ضربته الثانية بالصليبين حيث هاجم الصليبين و استولى (عام ١٢٨٥ م) على قلعة " المرقب " أقوى الحصون الصليبية في بلاد الشام ، وحين استفحل النزاع بين صليبي الشام ، أرسل (سنة٦٨٦هـ/ ١٢٨٧ م) حملة استولت على اللاذقية وهى أخر بلد كان قد تبقى للصليبين من إمارة "إنطاكية " .

ثم وقع " قلاوون " هدنة مع البقية الباقية من الصليبين بعد أن غدت " عكا " مركزاً له لمدة عشر سنوات.

- الأشرف خليل بن قلاون يتولى بعد وفاة السلطان قلاوون.
- وبدأ في الاستعداد لمواصلة الجهاد ضد الصليبيين.
- استرداد عكا بعد حصارها.
- وظلت الجيوش المملوكية تجوب الساحل الشامي بعد جلاء الصليبيين ، من أقصاه إلى أقصاه بضعة أشهر تدمر كل ما تعتبره صالحًا لنزول الصليبيين إلى البر مرة أخرى ، وبهذا وضع "الأشرف خليل " نهاية وخاتمة الحروب الصليبية.
- **اغتيال الأشرف وتولى الناصر محمد بن قلاوون.**

المماليك البرجية

- هم الذين أتى بهم " المنصور قلاوون" وهم من أصول كردية من " كردستان "، والذين تربوا ونشؤا في أبراج القلعة ، فأخلصوا لـ " المنصور قلاوون " و أبنائه و

أحفاده من بعده وذلك لرعاية " المنصور " لهم ، الذي عمل على تربيتهم بمنأى بعيد عن المماليك الترك البرية ، الذين دبت الفوضى بينهم .

وقد تميز عصر السلاجقة بعدة أمور أهمها :
١- كان كل السلاطين في هذا العصر من أصل جركسي عدا اثنين كانا من أصل يوناني .
٢- كان سلاطين هذا العصر أمراء أكثر من ما هم سلاطين ، ونجاح السلطان في الحكم كان يتوقف على قدرته في ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض .

٣- لم يوجد في عهدهم أي أثر لمبدأ وراثة العرش .

سلاطين المماليك البرجية

- **السلطان الظاهر برقوق(١٣٨٢-١٣٩٩).**

- أصبح برقوق المتصرف الفعلي في شؤون إدارة البلاد عن طريق :
١- إسناد الوظائف الكبرى إلى أتباعه ومماليكه ، وعمل على عزل كبار المماليك البحرية.
٢- أخذ يتقرب إلى عامة الناس ، ويؤلف قلوبهم عن طريق إلغاء بعض الضرائب وتحسين النقد .
٣- عندما أغار التركمان على حلب سنة ١٣٨١م تمكن برقوق من صدهم وطرد هم . الأمر الذي أظهره في صورة القائد القادر على الدفاع عن الدولة وحمايتها .

نلاحظ اقتران قيام دولة البرجية على يد السلطان برقوق مع ظهور نفوذ هذه الدولة بين الدول التي تاخمت حدودها الشرقية ، فأخذت هذه الدول تخطب ود السلطان برقوق رغبة في التمتع بحمايته وطلب معونته لاسيما حين بدأ التتار يكتسحون وسط آسيا وغربيها .

ولم يتأخر السلطان برقوق في أن يجعل من دولته الشركسية حصناً وملاذاً لجيرانه ، حتى أن أصحاب سنجار وقيصرية وتكريت حين كتبوا سنة ٨٨٥ هجري _ ١٣٨٣م إلى السلطان

برقوق برغبتهم في إعلان تبعيتهم له وخطبوا خطبة الجمعة باسم السلطان برقوق ، سارع إلى إعلان موافقته على مطالبهم وكتب لكل منهم تقليداً بنيابة السلطنة في بلده أي أن

برقوق وسّع في ملكه منذ البداية ، ووحد الأرض العربية.

- السلطان فرج بن برقوق.

- السلطان برسباى. هجومة على القبارصة : اتخذ القبارصة من جزيرتهم مركزًا للوثوب على الموانئ الإسلامية في شرق البحر المتوسط وتهديد تجارة المسلمين ، فقام "بطرس الأول لوزجنان" ملك قبرص بحملته الصليبية على الإسكندرية في سنة (٧٦٧هـ = ١٣٦٥م)، وأحرق الحوانيت والخانات والفنادق ، ودنس المساجد وعلق القبارصة عليها الصلبان ، واغتصبوا النساء ، وقتلوا الأطفال والشيوخ ، ومكثوا بالمدينة ثلاثة أيام يعيثون فيها فسادا ، ثم غادروها إلى جزيرتهم ، وتكررت مثل هذه الحملة على طرابلس الشام في سنة (٧٩٦هـ = ١٣٩٣م).

- انتصارات برسباى على القبارصة.

- **السلطان جقمق.** أستطاع الأمير جقمق الاستيلاء على العرش فى (١٤٣٧ – ١٤٣٨ م) ، وكان جقمق معتدلا في حكمة ، كما عرف عن جقمق تدينه وورعه فحرم المعاصي وشرب الخمر. وأهم انجازاته فتح جزيرة رودس ، ومن أهم الأسباب التي دفعت جقمق لفتح رودس :

١- كانت جزيرة رودس مركزاً هاماً للصليبين في شرق البحر المتوسط .

٢- تحريض السلطان مراد الثاني العثماني لجقمق على غزو رودس ؛ ليشغل فرسان الإسبتاريه برودس عن شن حملة صليبية ضد العثمانيين. .

٣- رغبة جقمق في أن يحذو حذو برسباي من ناحية ، وحتى يصرف أنظار المماليك عن النزاعات الداخلية ، ويوجه طاقتهم نحو الغزو الخارجي من ناحية ثانية . - انتصاره

- **السلطان قايتباى.** وقد أثبت " قايتباي"خلال مدة حكمه الطويلة التي بلغت (٢٩ سنة) أنه من أقدر السلاطين المماليك في ميادين القتال والشجاعة و أوسعهم خبرة في شؤون العالم الخارجي . فعلى الرغم من ثورات المماليك التي قامت في عهده استطاع أن يجابهها. لكن أهم ما يميز عهده هو علاقته بالتركمان في التخوم الشمالية لبلاد الشام .

- ساءت أحوال البلاد في أواخر عصر السلطان قايتباي بسبب كثرة الأعباء المالية وانتشار مرض الطاعون بدولة المماليك كلها سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م ووفاة السلطان قايتباي سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م ، ثم بدأ أمراء المماليك التنازع على الحكم وقتل بعضهم البعض .
- ثم حدث بعد ذلك أن واجهت مصر أكبر عقبتين لها: الأولى اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧م ثم تمكن " فاسكو دي جاما " من الوصول إلى الهند عن طريق الطواف حول أفريقيا سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م.
- **السلطان قنصوة الغورى:** وموقعة مرج دابق وهزيمة المماليك.
- **طومان باى :** موقعة الريدانية وسقوط دولة المماليك